الهدايا في الشعر العباسي

أ.د. ثائر سمير حسن الشمري
كلية التربية الأساسية /جامعة بابل

Gifts in Abbasid poetry

Prof. Thaer Samir Hassan Al Shammari
Faculty of Basic Education / Babylon University
Thaersamer1973@gmail.com

abstract:

When we read about the Abbasid poetry, we noticed that there are many texts in which poets talk about gifts, but they are divided into three sections. The first section is where poets are the initiators of the gift. They are the ones who give gifts to others. The second section is the poets. In the third section we noticed that poets received gifts without asking them, and in the three sections most of the poets described these gifts at length.

Keywords: Gifts, Abbasid poetry.

الملخص:

حين اطلعنا على الشعر العباسي، لحظنا وجود نصوص كثيرة يتكلم فيها الشعراء على الهدايا، إلّا أنّها مقسّمة على ثلاثة أقسام، القسم الأول منها يكون فيه الشعراء هم أصحاب المبادرة في الإهداء، فهم مَن يهدون الهدايا المختلفة إلى الآخرين، أما القسم الثاني، فقد كان الشعراء فيه يرومون الاستهداء لأمور معيّنة من الآخرين، لاسيما من الممدوحين، وفي القسم الثالث لحظنا حصول الشعراء على الهدايا من دون طلبهم لها، وفي الأقسام الثلاثة كان معظم الشعراء يصفون تلك الهدايا بإسهاب.

الكلمات المفتاحية: الهدايا، الشعر العباسي

لاشكّ في أنّ للهدية – مهما كانت قيمتها المادية – أثراً ايجابياً في نفس المُهدَى إليه؛ لما تتضمّنه من معاني الأُلفة والمحبة التي يكنّها الإنسان المُهدي إلى الإنسان المُهدَى إليه، فالهدية كما قال نبيّنا الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): "**تذهب السخيمة، وتجدّد الاخوة، وتثبت المودة**"[(1)]، وقد أكّد المعنى نفسه في حديث آخر، إذ قال: (عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام): "**تهادوا فانه يضاعف الحُبّ، ويذهب بغوائل الصدر**"[(2)]، إذن تحمل الهدية معاني سامية بحدّ ذاتها، وهي قيمة معنوية تبعث الفرح، وتنشر السعادة في قلوب مَن تتوجّه إليهم، وأورد الجاحظ في كتابه (المحاسن والأضداد) قولاً يتعلّق بما تبثّه الهدية في النفوس، إذ رأى أنّها "**تجلب المودّة، وتزرع المحبة، وتنفي الضغينة. وتركها يورث الوحشة، ويدعو إلى القطيعة. والهدية تصيّر البعيد قريباً، والعدوّ صديقاً**"[(3)]، ونلحظ أنّ مضمون نصّ الجاحظ لم يبتعد عن مضمون حديثَي النبي محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم)، وهذا لا يدلّ إلّا على أنّ هناك مشتركات أُتّفِقَ عليها بخصوص تأثير الهدايا في داخل النفس الإنسانية، وقد نُظِمَتْ هذه المشتركات (في بيتين من الشعر) من لدن الشاعر العباسي (أبي العتاهية)، وفيهما يصرّ الشاعر على أنّ الهدايا المتبادلة بين الناس تُولد الوصال في قلوبهم، وتزرع فيها المودّة، فضلاً عن أنّها تكسوهم جمالاً أمام الآخرين، قائلاً:

هدايا النّاسِ بعضِهِمُ لبعضٍ تُوَلِّدُ في قُلُوبِهِمُ الوِصالا
وتَزرَعُ في القُلُوبِ هوًى ووِدًّا وتَكْسُوهُمْ إذا حَضَرُوا جَمالا[(4)]

(1) تاريخ اليعقوبي 105/2.
(2) المستطرف من كل فن مستظرف/413.
(3) المحاسن والأضداد/395.
(4) أبو العتاهية أشعاره وأخباره /608، والبيتان منسوبان إلى دعبل الخزاعي، ينظر: شعر دعبل بن علي الخزاعي/169.

وحين اطّلعنا على الشعر العباسي، لحظنا وجود نصوص كثيرة يتكلم فيها الشعراء على الهدايا، إلّا أنّها مقسّمة على ثلاثة أقسام، القسم الأول منها يكون فيه الشعراء هم أصحاب المبادرة في الإهداء، فهم مَن يهدون الهدايا المختلفة إلى الآخرين، أما القسم الثاني، فقد كان الشعراء فيه يرومون الاستهداء لأمور معينة من الآخرين، لاسيما من الممدوحين، وفي القسم الثالث، لحظنا حصول الشعراء على الهدايا من دون طلبهم لها، وفي الأقسام الثلاثة كان معظم الشعراء يصفون تلك الهدايا بإسهاب كما سنرى، لذا ستكون دراستنا للهدايا في الشعر العباسي مبنية على أساس المحاور الثلاثة التي لا يمكن لأيّ نصّ شعري الخروج عنها بأيّة حال من الأحوال.

المحور الأول: الشاعر مُهدياً:

لم يكن الشاعر العباسي دوماً طامحاً إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الهدايا والأموال، نعم إنّه عُرِف عنه الطمع الشديد، وعدم الرضا بما يحصل عليه، ولكن ما لدينا هنا يُثبِتُ أنّ كثيراً منهم لم يكونوا كذلك، فالشعراء هنا هم الذين يبادرون إلى العطاء، فيهدون الهدايا المختلفة إلى ممدوحيهم أو أصدقائهم في مناسبات مختلفة، وفي ذلك انعكاس للوضع الاجتماعي الذي كانوا يعيشونه في ذلك الزمن، وإلقاء صورة حيّة لبعض ما كانوا يمارسونه من التقاليد والعادات التي تنمُّ عن قيم جميلة وأصيلة.

لحظنا تنوّع مواد الإهداء التي كان الشعراء يهبونها أو يهدونها، فهي تتنوّع بحسب الحاجة للمُهْدَى له، أو غلاء ثمنها، أو القيمة المعنوية التي تتضمّنها تلك الهدايا، ويبدو أنّ الشمع كان أمراً مرغوباً فيه، بدلالة اهتمام الشعراء به، وحرصهم على إهدائه لِمَن يعتزّون بهم، فالصنوبري يهديه إلى رجل يدعى (أبا حفص)، مُدَّعياً أنّه لم يجد هديّة يهديها له أفضل منه، فهو (الشمع) يجعل اللّيل نهاراً، بوساطة النار المنبعثة منه، ثم يطلب من المُهَدى إليه قبول هديته؛ لكي ينال مُهديها فخراً، وقد حفلت مقطوعة الصنوبري في وصف الشمع بتضمّنها فنين بديعيين، حاول الشاعر من طريقهما إضفاء جمالٍ إلى جمال النور المنبعث من شمعه، ألَا وهما الطباق والجناس، إذ بدا وضوحهما في قوله:

يا أبا حفصٍ قد اخترتُ فلم آلُ اختيارا
وتأمّلْتُ الهديّاتِ كباراً وصغارا
لم أجد شيئاً كشيءٍ يجعلُ الليلَ نهارا
فتأمّلْ من قريبٍ شجراً يحملُ نارا
واكْسُها منك قَبولاً تكسُ مُهديها فخارا(1)

ويُبدع الصنوبري في وصفه للشمع الذي أهداه – في مناسبة أخرى – لأحد ممدوحيه، إذ يصف مجموعة الشمع بالعذارى اللائي يتمّ افتضاضهنَّ من الأعلى، كما أنها لا تنتج الضوء إلّا بعد تلقيح ذوائبها بالنار، فضلاً عن تشبيهه الشمع بالكواكب، إلّا أنها لا تغيب كما تغيب الكواكب الحقيقية بعد شروق الشمس، وحين ينتهي الشاعر من وصفه، يعلن عن إهدائه ذلك الشمع إلى ممدوحه الذي نعته بالملك الكريم، ووصف أصله بالشرف، ثم ختم مقطوعته بتوظيف جناس لطيف بين الضياء المنبعث من الشمع، ومحاسن الممدوح التي تضيء لكل مَن يسير على وجه البسيطة، قائلاً:

وصفرٍ من بنات الكحل تكسى بواطنها، وأظهرها عَوارِ
عذارى يُفْتَضَضْنَ من الأعالي إذا افتضتْ من السفل الجواري
وليست تنتجُ الأضواءَ حتّى تُلَقَّح في ذوائبها بنارِ

---

(1) ديوان الصنوبري/11.

كواكبُ لسنَ عنك بآفلاتٍ إذا ما أشرقتْ شمسُ العقارِ

بعثتُ بها إلى ملكٍ كريمٍ شريف الأصلِ محمود النِّجارِ

فأهديتُ الضياءَ بها إلى مَن محاسِنُه تضيءُ لكلِّ سارِ(1)

ويبقى الوصف محوراً رئيساً في كلام الشاعر العباسي على هديته التي يجود بها إلى الآخر، فالثعالبي يُهدي الشمع والسُكَّر إلى أحد أصدقائه، ويصفهما في بيتين من الشعر، مُدَّعياً أنّ السُكَّر تستقرّ حلاوته في قرار الصدور، في الوقت الذي يمزّق فيه شمعه ثوب الدُّجى، كناية عن قوّة الضياء الصادر من نيرانه، فضلاً عن أنّه يُلبس المُهدى إليه ثوباً من النور، قال:

بعثتُ إلى سيِّدي سُكَّراً حلاوتُهُ في قرار الصُّدورْ

وشمعاً يمزِّقُ ثوبَ الدُّجى ويُلبِسُ جيرانَهُ ثوبَ نورْ(2)

وتتجاوز إهداءات بعض الشعراء إلى ما هو أكثر قيمة من الشمع، فقد يهدون أشياء ثمينة جدًّا مثل الفص الذي هو عبارة عن حجر كريم ينماز بجماله يزيّن الخاتم، وكان الصنوبري قد بعث به هدية للشاعر كشاجم، فوصفه بانّه يحتوي مياهً من شدّة حسنه، لو صوّب احدهم عليها لتفجّرت، وارتووا منها، ثم يبالغ الشاعر أكثر في وصف ذلك الفصّ، حين يرى أنه لو جرى لانبجست منه اثنتا عشرة عيناً، في إشارة واضحة إلى الآية الكريمة التي يقول فيها الله (سبحانه وتعالى): **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾**(3)، وفي ختام المقطوعة ينهي الشاعر كلامه بجناس موظف توظيفاً جميلاً، حين يعلن عن أنّه أهدى هذه الزينة إلى كفّ فتى يستحقّها، ليزداد زينة بها، يقول:

قد توخيناك بالفصْـصِ الذي كان لدينا

فيه للحسنِ مياهٌ لو تَصَوَّبْنَ جرينا

فهو لو يكرع ذودٌ فيه يوماً لارتوينا

أو جرى انبجست منـ ـهُ اثنتا عشرة عينا

زينة تُهدى إلى كفْـ ـفِ فتًى زادته زينا(4)

ومن الطريف أنّ هذه الأبيات نفسها مع تعديلات وزيادة فيها؛ تُنسب إلى الشاعر الذي أُهدِيَ إليه الفصّ من لدن الصنوبري، فهي تُنسَب إلى كشاجم، على وفق هذه الرواية:

قد وَفَينا لكَ بالوَعْـ ـدِ وكان الوعدُ دَيْنا

وحَكَمْنا لكَ بالإيْـ ـثارِ بالحَظِّ علينا

ببَدِيعٍ ما رَأينا مِثْلَهُ فِيما رأينا

فيه للحسن مِياهٌ لو تَصَوَّبْنَ جَرَينا

فهو لو يَكْرَعُ ذَوْدٌ فيهِ يوماً لارتَوَيْنا

---

(1) م.ن/480، والأبيات نفسها منسوبة إلى كشاجم ، ينظر: ديوان كشاجم/203.
(2) ديوان الثعالبي/73.
(3) الأعراف/ من الآية 160، وتنظر: البقرة/ من الآية 60.
(4) ديوان الصنوبري/501- 502.

أو جَرَى لانْبَجَسَتْ مِنـ ـهُ اثنتا عشرة عَينا

زِينةٌ تُهْدَى إلى كفْ فِ فَتىً زادَتْهُ زَينا[1]

إلّا أنّي أُرَجِّحُ صحّة نسبة الأبيات إلى الصنوبري لسببين، الأول: لأنه أقدم من كشاجم من الناحية الزمنية، إذ توفي سنة 334هـ، في الوقت الذي توفي فيه كشاجم سنة 360هـ، والثاني: لأنّ الأبيات في نسبتها إلى الصنوبري كانت موسومة الإهداء إلى كشاجم، في حين تخلو من نسبة الإهداء في ديوان كشاجم، والله تعالى أعلم.

وقد يسوِّغ الشاعر قيمة الهدية بمعنويتها، وبالغاية التي ستؤول إليها، وليس بقيمتها المادية أو الاجتماعية، وأوضح مثال نستدلّ به على ذلك؛ الهدية التي بعثها أبو العتاهية – وكان معروفاً بشدّة بخله – إلى أحد ممدوحيه، فهي عبارة عن نعل، فهو يُعلِّل لإهدائه ذلك النعل، بأنّ ممدوحه سيلبسها لتسعى بها قدمه إلى العلا، وهو (الشاعر) لا يدّخِر جهداً في إهانة نفسه، وذلك حين يعلن عن أنّه لو كان ما يرجوه ممكناً لفعله، فقد ادّعى استعداده لجعل شراك ذلك النعل خَدَّهُ، إذ قال:

نَعْلٌ بَعَثْتُ بها لِتَلْبَسَها تَسعى بها قَدَمٌ إلى المَجْدِ

لو كان يَصْلُحُ أنْ أُشَرِّكها خَدِّي جَعَلْتُ شِراكها خَدِّي[2]

ولا يخفى ما في هذين البيتين من إهانة للنفس الإنسانية التي كرّمها الله تعالى، ولكن الشاعر هو من رضي بذلك، ولم يجبره أحد، فطمعه فقط أدّى به إلى النزول للحضيض.

وشتّان بين إهداء النعل في شعر أبي العتاهية، وإهداء البخور في شعر أحمد بن أبي طاهر طيفور، فالبخور يعني الرائحة الزكية والعطر الطيب الذي ترتاح له النفوس، فحين طلب الشاعر أبو علي البصير إلى الشاعر طيفور أنْ يهديه بخوراً، سارع الأخير إلى تنفيذ طلبه، فأهداه بخوراً مع أربعة أبيات من الشعر، يشرح فيها أنّه بعث له بدرج من البخور الذي لا يوجد مثله في الأماكن المنخفضة ولا في الأماكن المرتفعة، في دلالة أو إشارة إلى ندرته، كما أوضح للمُهْدَى له أنّه أطيب منه وأزكى، داعياً إيّاه إلى التبخر منه، في قوله:

قد بعثنا إليك بدُرجٍ وأزرناكَ منهُ أطيبَ زورِ

بين ندٍّ وبين عُودٍ مطرًّا مالهُ مشبهٌ بنَجْدٍ وغَوْرِ

أنتَ منه أزكى وأطيبُ عَرْفاً وهوَ أزكى مِن كُلِّ طيبٍ ونَوْرِ

ما تَعَدَّيتَ فيه طَوْرَكَ عندي فتبَخَّرْ منه بأيمنِ طَيْرِ[3]

وعلى غير المألوف من التقاليد والعادات الدارجة بين المادح والممدوح في ذلك الزمن، يُهدي البحتري ممدوحه حصاناً، ثم يصفه له بعد أنْ مدحه مديحاً عذباً، وتأتي هذه الهدية بوصفها ردّة فعل من الشاعر تجاه ممدوحه؛ لكونه بدأ العطاء معه، وكان ذا فضل كبير عليه، وهذا ما صرّح به الشاعر فعلاً في مقدّمة قصيدته؛ إذ وصفه بأنه أُنس الصديق، وغيظ صدر الكاشح، وبعد مدح الشاعر ممدوحه، يلجأ فيما تبقى من قصديته إلى وصف الحصان الذي أهداه له، فهو ضامر البطن، ضخم القوائم، من نسل أعوج المنسوب لبني هلال، ومازال في ريعان عمره، فلا هو صغير السّنّ، كما أنّه لم يبلغ مبلغاً كبيراً، وما إلى ذلك من الصفات الحسنة التي إنماز بها، وسرعان ما يعلن البحتري عن إهداء ذلك الحصان إلى ممدوحه؛ لتغدو أوّل سنّة مأثورة في قبول الممدوح هدية المادح، يقول:

أضحَتْ بـ(مَروِ الشّاهجانِ) مَنادِحي ولأهْلِ (مَرْوِ الشّاهجانِ) مَدائِحي

---

(1) ديوان كشاجم/390.
(2) أبو العتاهية أشعاره وأخباره/527.
(3) أحمد بن طاهر طيفور، حياته 0 شعره- رسائله ؛ ضمن : أربعة شعراء عباسيون/308.

وَصَلُوا جَناحي بالنَّوالِ، وآمنوا ... من خَوفِ أحداثِ الزمانِ جَوَانِحي

كم مِن يدٍ بَيضاءَ أشكُرُ غِبَّها ... منهمْ، وفيهم من أخٍ ليَ صالحِ

فاللهُ جارُ (أبي عليٍّ) إنّهُ ... أُنْسُ الصّديقِ، وغَيظُ صَدْرِ الكاشِحِ

شَيخُ الأمانةِ والدِّيانةِ مُوجِفٌ ... في مَذْهَبٍ أَمَمٍ وحِلْمٍ راجِحِ

ذُو عُروَةٍ في (الأعجمينَ) وثيقةٍ ... وأرومَةٍ مَرْءُ ومَةٍ في (واشِحِ)

نفسي فداءُ خلائقٍ لك حُرَّةٍ ... وزِنادِ مَجْدٍ في يمينِكَ قادِحِ

إنّي أقولُ، وما أقولُ مُعَرِّضاً ... في ذكْرِ مَكْرُمَةٍ بِعَبْثَةِ مازِحِ:

ماذا تَرى في مُدْمَجٍ عَبْلِ الشَّوى ... مِن نَسْلِ أَعْوَجَ كالشِّهابِ اللّائحِ

لا تَرْبُهُ الجَذَعُ الذي يَعْتَاقُهُ ... وَهْنُ الكَلَالِ، وليسَ كُلَّ القارِحِ

عُتُقٌ كقائمه القليبِ تَعَطَّفَتْ ... أَوَدًا، ورأسٌ مِثْلُ قَعْوِ الماتِحِ

يختالُ في شِيَةٍ يَمُوجُ ضِياؤها ... موجَ القَتِيرِ على الكميِّ الرَّامِحِ

لو يَكْرَعُ الظَّمآنُ فيهِ لم يُمِلْ ... طَرْفاً إلى عَذْبِ الزُّلَالِ السائحِ

أهدَيتُهُ لِتَرُوحَ أبيضَ واضِحاً ... منه على جَذْلَانَ أبيَضَ واضِحِ

فتكونَ أوَّلَ سُنَّةٍ مأثورةٍ ... أنْ يَقْبَلَ الممدوحُ رِفْدَ المادِحِ(1)

كما لحظنا أنّ كثيراً من الهدايا في الشعر العباسي، كانت تتداول بين الشعراء أنفسهم، وذلك ممّا يُعزز الألفة فيما بينهم، ويديم أواصر المحبة والاحترام، ومثال ذلك (القدح) الذي أهداه ابن الرومي إلى الشاعر علي بن المنجم، ووصفه بثمانية عشر بيتاً شعريًّا، الأمر الذي يدلّ دلالة واضحة على تمكّن الشاعر من فن الوصف وإجادته له، فله مقدرة عجيبة في وصف ذلك القدح، إذ لم يترك أمراً جميلاً، أو صفة حسنةً، إلّا نسبهما له، فهو (القدح) لا يوفيه واصف حقّ وصفه، على الرغم من كلّ ما نسبه الشاعر له من الصفات الحسنة، بحيث أنّ الحليمَ يُصبح مستخفًّا إذا ما رآه، وفي هذه الصورة اكتفاء لنا عمّا عدّده الشاعر من صفات له، وفي نهاية هذا الوصف المبالغ فيه، يدعو الشاعر للمُهْدَى إليه بالتمتّع به، والعيش في سرور لمدة ألف عام، قائلاً:

وبديعٍ من البدائعِ يَسْبِي ... كُلَّ عقلٍ، ويطَّبي كُلَّ طَرْفِ

وُفِيَ الحُسنَ والملاحةَ حتّى ... ما يُوفِّيه واصفٌ حقَّ وَصْفِ

قدحٌ كان للرشيد اصطفاه ... خَلَفٌ من ذكوره غيرُ خلفِ

كفَمِ الحِبِّ في الحلاوةِ بل أحـ ... ـلى وإنْ كان لا يناغِي بحرفِ

(1) ديوان البحتري 1/468- 470، مرو الشاهجان: قصبة بلاد خراسان على نهر مرغاب، فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر بن الخطاب، المنادح: ما اتّسع من الأرض، الغبُّ: العاقبة، الموجف: من الايجاف ؛ وهو سرعة السير. الأمَم: القصد الوسط، الأرومة: الأصل، المرءومة: الأصل فيها : الحبل المفتول شديداً، كناية عن أنّ أصله واشح متين، واشح: بطن من الأزد، المدمج: الضامر، العبل: الضخم من كلّ شيء، الشّوى: القوائم، أعوج: فرس من بني هلال المشهور بنسله، الجذع والقارح: تُقال في سني الحصان، ففي السنة الأولى حوليٌّ ثم جَذَع ثم ثنيّ ثم رَباع ثم قارح، وقيل : هو في الثانية فِلْو، وفي الثالثة جَذَع، القليب: البئر، الأوَد: الاعوجاج، القعو: البَكرة من الخشب أو المحور من الحديد، الماتح: المستقي، الشّية: كل لون يخالف معظم لون الفرس، القتير: رؤوس مسامير الدروع، الكميّ: الشجاع أو لابس السلاح، كرع في الماء تناوله بفيه من موضعه من غير أنْ يشرب بكفَّيه ولا بإناء، الرفد: العطاء.

صِيغَ من جوهرٍ مصفّى طباعاً   لا علاجاً بكيمياءِ مُصَفِّ
تنفذُ العينُ فيه حتّى تراها   أخطأتْهُ من رِقَّةِ المستشفِ
كهواءٍ بلا هباءٍ مَشوبٍ   بضياءٍ أَرِقْ بذاكَ وأصفي
وسَطُ القدرِ لم يكبر لجَرَّعٍ   مُتوالٍ ولم يُصغَّر لرشفِ
لا عجولٌ على العقول جهولٌ   بل حليمٌ عنهنّ في غير ضعفِ
يُمْتعُ الشّاربين بالشُّربِ فيه   وبِلذَّاتِ كُلِّ قصفٍ وعَزفِ
ما رأى الناظرون قَدًّا وشكلًا   فارساً مثله على بطن كفِّ
ليس يخلو إذا تعاطاه قومٌ   من أكُفٍّ يَمْسَحْنَهُ بتَحفِّي
ما رأوهُ إلّا استُخِفَّ حليمٌ   لم يكن قبل ذاك بالمُستخَفِّ
تُؤثر العينُ أن تنزَّه فيه   عند قول الكرى لذي العين: أغفِي
فيه نونٌ معقربٌ عطفَتْهُ   حكماءُ القَيّونِ أحسنَ عطفِ
مثلَ عطف الأصداغ في وجناتٍ   من غزالٍ يُزْهَى بحسنٍ وطرفِ
ذَخَرَتْهُ لك العواقبُ عندي   يتخطاه كلُّ حَينٍ وحتفِ
فتمتّعْ به وعِشْ في سرورٍ   ألف عامٍ، ولستُ أرضى بألفِ(1)

وأهدى كشاجم مضراب عود لإحدى النساء المتقنات للضرب على العود، فذلك واضح من طبيعة التراكيب المنظومة، ويبدو أنّ الشاعر كان عاشقاً لتلك المرأة، فضلاً عن عشقه لضربها على العود، فهو يطلب منها قبول هديته وعدم رفضها؛ لكي لا يكون مصدر شماتة للحسّاد، ثم سرعان ما أعلن عن أنّه – بهديّته هذه– أراد التقرّب للعود الذي ستضرب بهديته عليه، إذ قال:

يا أيُّها الصَّلِفُ المُدِلُّ بِحُسْنِهِ   جُدْ للمُحبِّ فأنتَ أهْلُ الجُودِ
بقبولِ مِضْرابٍ حَكاكَ بِلُطْفِهِ   حَسَنِ التَّعَطُّفِ مُخْطَفٍ مَقْدُودِ
مُتَشَبِّهٌ بكَ حينَ تَخْطرُ لاهياً   وتَمِيسُ بين مَجَاسِدٍ وعُقُودِ
لا تُشْمِتَنَّ بِيَ الحَسُودَ بِرَدِّهِ   يَفديكَ كُلُّ مُنافِسٍ وحَسُودِ
لم أُهْدِهِ لكَ يامُناي وإنّما   أَهْدَيْتُهُ مُتَقَرِّباً لِلعُودِ(2)

وقد يكون الشاعر ذكياً في بعض إهداءاته، فهو يهدي من جانب، ويلمح بحاجته للممدوح أو المُهدَى إليه من جانب آخر، ومثال ذلك ما فعله الخبّاز البلدي، حين أهدى إلى ممدوحه نبيذاً جيد النوعية، ويعتذر عن قلّته؛ لكونه كان كلّ ما لديه، فهو أوّله وآخره، بحسب قوله:

أستاذنا والذي نؤمّله   للدهر من كلّ ما يحاذرُهُ

(1) ديوان ابن الرومي 4/1558- 1559.
(2) ديوان كشاجم /103- 104، المجاسد: إما جمع مُجْسَد أو مُجَسَّد، بمعنى الثوب المصبوغ بالزعفران، وإما جمع مِجْسَد كمبرد: وهو ثوب يلي الجسد.

هذا نبيذٌ حسناً مستعذباً يرتضيه خابرُهُ

وإنّ عذري في فرطِ قِلَّتِهِ باطنه واضح وظاهِرُهُ

إذ كان هذا الذي بعثتُ به أوّل ما عندنا وآخرُهُ(1)

ولاشكّ في أنّ هذه الهدية البسيطة، كانت باباً للطلب من الممدوح أو المُهدَى إليه نفسه، فالشاعر– في الأبيات السابقة– اراد طلب النبيذ من ممدوحه، ولكن بطريقة غير مألوفة في الشعر العربي، فهذا واضح من طبيعة الألفاظ المنظومة فيها، فضلاً عن دلالة النصّ.

وأهدى الشاعر محمد بن هاشم الخالدي إلى ممدوحه مروحة، وكتب معها أبياتاً يبين فيها أنّه بعث له مروحة هي راحة للقلوب؛ ثم يصف نسبتها المتكونة من سعف نخل النبيط، ومن خيزران غياض العرب، ثم يعدد فضائلها الجمّة فيما تبقّى من أبيات القصيدة، إلّا أنّ الشاعر لم يكتفِ بذلك، بل ابان عن اهم خصيصة في تلك المروحة، ألَا وهي كتابة اسم الممدوح في ظهرها؛ لأنه أدرك أنّ فعله ذلك سيؤثر فيه تأثيراً إيجابياً، الأمر الذي يؤدي إلى رضاه عنه، وربما إلى الإغداق عليه بما لذّ وطاب من الهدايا؛ جزاء لفعله ذلك، قال:

أيا عَمْرو يابن العلى والحَسَبْ ومَنْ حَلَّ في المَنْصِبِ المنتَخَبْ

بعثتُ إليكَ – أطالَ الإلـ ـهُ عُمْرَكَ ما طال عمر الحِقَبْ–

بمَروَحَةٍ راحَةٍ للقُلُوبِ لها نِسْبَتانِ إذا تَنْتَسِبْ

ففي سَعْفِ النَّخْلِ نَخْلِ النَّبيطِ وفي خيزران غياض العَرَبْ

عَليها الحِدادُ كَمَهْجُورَةٍ رَمَتْها عَشِيقَتُها بالغَضَبْ

منافِعُها أبداً جَمَّةٌ لِمالِكِها غيرَ قَولٍ كَذِبْ

تَرُدُ التَّشارينَ في حُمَّةٍ مِنَ القَيظ نيرانُها تَلْتَهِبْ

وتُجْعَلُ سِتْراً إذا ما أردْ تَ سِرًّا إلى صاحِبٍ في سببْ

وإنْ شِئْت كانت قضيبَ الأقاحِ فأدَّتْ إليكَ فُنُونَ الطَّرَبْ

وتصلُح للضَّربِ ضَرْبِ الدَّلَالِ دلالِ الحَبيبِ، إذا ما عتبْ

وتُومِي بها في عُرُوضِ الكلامِ إذا ما احتبيتَ لنَثْرِ الخُطَبْ

ومِن بعدِ ذا كُلِّهِ فاسْمُكَ الـ ـمُبارَكُ في ظَهْرِها قد كُتِبْ(2)

وأهدى الشاعر الصاحب بن عباد إلى الأمير فخر الدولة البويهي ديناراً؛ كان وزنه الف مثقال، وكتب على أحد جانبيه سبعة أبيات من الشعر، كان وصفُ ذلك الدينار بداية لها، فهو يشبه الشمس شكلاً وصورة، فاذا سُمِّيَ ديناراً؛ صَدَقَ القولُ عليه، وإذا قيل ألف؛ كان ذلك بعض صفاته، ثمّ ادّعى الشاعر أنّه دينار مميّز في صنعه، فلا وجود لمثيل له إطلاقاً، ثم يتعالق الوصف للدينار بمدح

(1) شعر الخبّاز البلدي/33.

(2) ديوان الخالديِّين/26- 28، النبيط: جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقيين، سمّوا بذلك لكثرة النبط عندهم وهو الماء، التشارين: جمع تشرين: وهما شهران من شهور السنة الميلادية، احتبى بالثوب احتباء: اشتمل به، وقيل جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها ليستند إذ لم يكن للعرب في البوادي جدران تستند إليها في مجالسها.

الأمير والمملكة معاً، ليتوصل الشاعر إلى زيادة تقرّبه منهم، على الرغم من أنّه كان وزيرهم في اثناء نظمه لهذه الأبيات التي يصف فيها هديته، قائلاً:

وأحمرَ يحكي الشّمسَ شكلاً وصورةً فأوصافُهُ مشتقَّةٌ من صفاتِهِ

فإنْ قيلَ دينارٌ فقد صَدَقَ اسمُهُ وإنْ قيلَ ألفٌ كان بعضَ سماتِهِ

بديعٌ فلم يُطْبَعْ على الدهر مثلُهُ ولا ضُرِبَتْ أضرابُهُ لسَراتِهِ

فقد أبرزَتْهُ دولةٌ فَلَكِيَّةٌ أقامَ بها الإقبالُ صدرَ قَناتِهِ

وصار إلى (شاها نشاه) انتسابُهُ على أنَّهُ مستصغرٌ لعُفاتِهِ

يُخَبِّرُ أنْ يبقى سنين كوزنِهِ لتستبشر الدنيا بطول حياتِهِ

تأنَّقَ فيه عبدُهُ وابنُ عبدِهِ وغرسُ أياديه وكافي كفاتِهِ(1)

وحين عزم الشاعر نفسه على الإشادة بأخلاق القاضي علي بن عبد العزيز، عمد إلى إهدائه عطراً زكي الرائحة، شبّهه فيه بطيب أخلاق القاضي، فكأنّما يهدي الشاعر أخلاق القاضي إليه، وذلك في بيتين من الشعر؛ كتبهما في رقعة وأرسلها إليه برفقة العطر، أعلن في البيت الأول منهما عن اشتياقه للقاء ذلك القاضي، على الرغم من قرب عهد لقائهما، وفي البيت الثاني أخبره عن إهدائه العطر الذي يشبه أخلاقه، قائلاً:

ياأيُّها القاضي الذي نفسي له معْ قربِ عهدِ لقائِهِ مشتاقَهْ

أهديتُ عطراً مثل طيب ثنائِهِ فكأنّما أُهدي له أخلاقَهْ(2)

وحضر الجناس على مستوى عالٍ في نهايات صدور بيتَي أبي الفتح البُستي وأعجازهما، لينقل لنا من طريق بيتيه، والجناس الذي تضمّنهما؛ مدى حبّه لصديقه الغائب عنه، وتشوّقه إلى رؤيته بعد غيابه عنه، إذ أهداه سواكا، وهو عود يُتَّخَذ من شجر الأراك، وقد نجح الشاعر في توظيف الجناس، للإعلان عن رغبته في عودة صديقه؛ لكي يراه، فقال:

جعلتُ هدّيتي لكم سواكا ولم أقصد به خلقاً سواكا

بعثتُ إليكَ عوداً من أراكٍ رجاء أنْ تعود وأنْ أراكا(3)

وعلى الرغم من عدم إخبارنا عن نوع الهدية التي أرسلها الشاعر أبو اليُمن الكندي البغدادي إلى ممدوحه، لحظنا أنّه يُكثِرُ من الاحتجاجات الشعرية في أبياته التي تحدث فيها عن هديته، فضلاً عن مدحه لتلك الشخصية المُهدَى لها، فهو يلجأ إلى أسلوب الاحتجاج لإقناع ممدوحه بقبول هديته، فناطور البستان يُهدي لمالك البستان من إنتاج بستانه، كما أنّ الغيث حين يجود على البحر، فمن البحر أصل ذلك الغيث، لذا يتمنى الشاعر أنْ يقبل ممدوحه هديته، ليزيده شأناً إلى شأنه، وقد ابتدأ الشاعر مقطوعته بالمدح، قائلاً:

ياخيرَ مَنْ يعشو إليه امرؤٌ يعشو عن الذّلِّ وأوطانه

لا غروَ أنْ يهدي عبدٌ إلى سيِّدِهِ من بعض إحسانه

فمالكُ البستانِ يهدي له ناطورُه من حمل بُستانه

(1) ديوان الصاحب بن عباد/196.
(2) م.ن/253.
(3) أبو الفتح البُستي حياته وشعره/288، الأراك: شجر تتخذ منه أعواد السواك.

والبحرُ إنْ جادَ عليه الحيا يوماً فمنه أصل تهتانه
فامنن على العبد قبولاً به تزيده شأناً إلى شانه
لازلت مفدى العلا والندى بكلّ مُكدي الجود منّانه(1)

وآثر بعض الشعراء أنْ تكون هداياهم مختلفة عن الآخرين، فالهدايا المادية ستنتهي صلاحيتها، ويختفي أثرها بمرور الأيام والسنين، فعمدوا إلى إهداء ممدوحيهم شعراً يعتمد تسطير الثناء والحديث عن الصفات الايجابية المتتابعة للممدوح، فذلك الثناء يبقى ببقاء الحياة، ولا يمكن أن يزول إلّا بزوالها، ومن هذا المنطلق حصلنا على هدايا شعرية جميلة حظي بها بعض الممدوحين، فالشاعر يزيد المهلبي يهدي الخليفة المعتمد على الله قصائد تملأ الآفاق ممّا أحلَّ اللهُ تعالى من سحر البيان بحسب قوله، وهذه القصائد ستبقى خالدة، في الوقت الذي ستنتهي فيه هدايا المهرجان، ولابدّ من سبب رئيس يدفع الشاعر إلى تدبيج قصائد في ممدوحه، وهو استجارته بالخليفة، الذي يجعله يشعر بالأمان من صروف الزمان، لذا فهو – من وجهة نظر الشاعر – يستحق المدح بتلك القصائد التي وصفها الشاعر بأنها هدايا من لسانه، كما قال:

سيبقى فيكَ ما يُهدي لساني إذا فَنِيتْ هدايا المهرجانِ
قصائدُ تملأُ الآفاقَ مِمّا أحَلَّ اللهُ مِن سحر البيانِ
بها ينفي الكرى السّارون عنهم وتُلهي الشّربَ أوتارُ القِيانِ
بمعتمدٍ على اللهِ استَجَرْنا فبتنا آمنينَ على الزّمانِ(2)

ويبدو أنّ الأعياد والمناسبات والاحتفالات التي تُعْقَد فيها، كانت أسباباً رئيسة تدفع الشعراء إلى التغني بأعمال الممدوح، وفي اثناء ذلك يهدونه قصائدهم، مثلما فعل الشاعر السابق، وكذلك ما فعله الشاعر أحمد بن أبي طاهر طيفور مع ممدوحه (اسماعيل بن بلبل)، الذي هنّأه بالنوروز في ثمانية أبيات، دعا له فيها بعدم زوال النعمة، وتمنّى أنْ تتجدّد بتجدّد الأيام والدهر، وأنّ الأعياد تأتي وتنقضي أيّامها، في حين تبقى أيام الممدوح؛ لكونها أيّاماً غرّاء، فهو جمال الدنيا وزينتها، كما أنّه ذخرٌ للأحرار، ولذلك وجد الشاعر أنّ الهدايا كلها من دون قدره، فماذا يُهدي الشاعر له، والفضل كلّه من فضل جوده ؟!

لقد عَمِدَ الشاعر إلى إهدائه جواهرَ من شعره، يتباهى بها الشعر والنثر، وتلك المدائح ستبقى ببقاء الدهر، والشاعر يعدّ تلك المدائح شكراً لِمَن يستحقّه، إذ قال:

أبا الصَّقْرِ لا زالت من اللهِ نعمة تُجَدِّدها الأيّامُ عندكَ والدَّهْرُ
ولا زالتِ الأعيادُ تمضي وتنقضي وتبقى لنا أيّامُكَ الغُرَرُ الزُّهْرُ
فإنّكَ للدُّنيا جمالٌ وزينةٌ وإنّكَ للأحرار ذُخْرٌ هو الذُّخْرُ
رأيتُ الهدايا كلّها دون قدرِهِ وليس لشيءٍ عند مقداره قَدْرُ
فلا فَضْلَ إلّا وهو من فضل جُودِهِ ولا بِرَّ إلّا دونَهُ ذلك البرُّ
فأدهيتُ من حَلْي المديحِ جواهرًا مُنَصَّلَةً يزهى بها النَّظْمُ والنَّثْرُ
مدائحُ تبقى بعدما نَفَدَ الدَّهرُ وتَبْهَى بها الأيّامُ ما اتّصل العمرُ

(1) أبو اليُمن تاجُ الدين زيد بن الحسن الكندي البغدادي، حياته وما تبقى من شعره/59- 60، تهتان: هطول المطر. تهتن السماء تصبّ، أو فوق الهطل أو الضعيف الدائم، أو مطر ساعة ثم يفتر ثم يعود.
(2) يزيد المهلبي، ضمن شعراء عباسيون (السامرائي)/270.

شكرتُ لإسماعيل حُسْنَ بلائِهِ وأفضلُ ما تُجْزَى به النِّعَمُ الشُّكْرُ[1]

وبيدو أنّ الشاعر نفسه كان في حيرة أبديّة مع ممدوحه فيما يتعلق بنوع الهدية التي يروم إهداءها له، فهو دائماً وأبداً لا يُفلح في التوصّل لها؛ لكونه لا يرى أيّة هدية تتناسب مع مقامه، ففي مقطوعة أخرى يتحدث عن حيرته امام اختيار الهدية، فاذا سعى إلى إهداء نفسه إليه، يتراجع لكون نفس الشاعر هي نفس الممدوح، وكذلك فان المال ماله، لذا لم يجد إلّا الحمد والشكر له في شعره، فالمديح يبقى له؛ لأنه يستحقّه، بحسب قوله:

من سُنّةِ الأملاك فيما مضى من سالفِ الدَّهرِ وإقبالِهِ

هديّةُ العبدِ إلى رَبِّهِ في جِدّةِ الدَّهْرِ وأحوالِهِ

فقلتُ ما أُهدي إلى سيّدي حالي وما خُوِّلْتُ من حالِهِ

إنْ أُهْدِ نفسي فهي من نفسه أو أُهْدِ مالي فهو من مالِهِ

فليس إلّا الحمد والشكر والـ ـمدحَ الذي يبقى لأمثالِهِ[2]

وكانت الجوائز والعطايا عادة سارية، وهدية مألوفة للشعراء المادحين[3]، إلّا أنّ المتنبي كان يرى أنّ أشعاره فيهم أرقى من هداياهم؛ لأنه يمنحهم شعراً خالداً، وهو يصرّح بذلك، كما في مدحه لطاهر العلوي، فهو يهديه بلاغة لسانه، وشعراً راقياً يشبه الروضة العامرة بالأزهار والرياحين، فتكون منظراً يثير المسرة لدى الآخرين، وهذا الشعر – حتماً– أفضل من الهدايا المادية، يقول:

حَمَلْتُ إليهِ من لِساني حديقةً سَقَاها الحِجى سَقْيَ السَّحائِبِ

فَحُيِّيتَ خَيرَ ابنٍ لخَيرِ أبٍ بها لأشرفِ بيتٍ في لُؤَيِّ بن غالِبِ[4]

وبانتهاء الحديث عن هدايا الشعراء الشعرية، ينتهي كلامنا على المحور الأول، الذي كان فيه الشعراء هم المبادرون إلى بعث الهدايا إلى ممدوحيهم، أو إلى أيّ شخص آخر يعتزّون به، وقد لحظنا تنوّع الهدايا لديهم، وبساطتها في الأكثر.

المحور الثاني– الشاعر مُستهدِياً:

في هذا المحور يكون الشاعر مُستهدِياً، بمعنى أنّه مَن يطلب الهدية من الآخر بلسانه، فضلاً عن أنه هو مَن يحدّد نوع تلك الهدية بحسب حاجته لها، أو إعجابه بها، وطمعه في الحصول عليها لأسباب متعددة، وكان النبيذ الأمر الوحيد المفضل لدى السّريّ الرّفّاء، فهو يستثمر أيّة فرصة تسنح له ليستهديه من مُخاطَبِهِ، سواء أكان أميراً أم صديقاً، فقد استهدى – في إحدى مقطوعاته – النبيذ من الأمير أبي الهيجاء حرب بن سعيد بن حمدان الحمداني، مُدَّعياً أنّ كأسه ظمئت؛ بسبب طول عهد انقطاعه عن الشراب، وأنّها قد شحبت، لذا يطلب السقيا منه، ويرفض سقيا السحاب، فعلّة الشاعر في شحّة النبيذ لديه، وليس هناك طبيب لعلته إلّا الأمير؛ ليكون شافياً له، قال:

تَجَنَّبنِي حَسْنُ المُدامِ وطِيبُها وقد ظَمِئَتْ كأسي وطالَ شُحُوبُها

وعندي ظُرُوفٌ لو تَظَرَّفَ دَهرُها لَما باتَ مُغْرًى بالكآبةِ كُوبُها

وشُعثُ دِنانٍ خاوياتٍ كأنَّها صُدُورُ رجالٍ فارقَتْها قُلُوبُها

وسُقْياكَ لا سُقْيا السّحابِ فإنّها هي العِلَّةُ الكُبرى وأنتَ طَبِيبُها[1]

---

(1) أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته – شعره- رسائله/306.
(2) م.ن/320.
(3) ينظر: جنون العظمة في المتنبي – فضيلة خلقية، ضمن: أبو الطيب المتنبي حياته وشعره:69.
(4) شرح ديوان المتنبي 1/286- 287.

ويبدو أنّه لا يتردّد أبداً في طلب النبيذ من أيّ ممدوح يتعرّض لمدحه، إلّا أنّه يلجأ إلى أسلوب المداعبة في ذلك الاستهداء، الأمر الذي يجعل الطلب أَقَلّ صعوبة، ففي مدحه لابن فهد، يستهديه النبيذ الذي أعوزهم في صبيحة يوم جميل، طالباً منه أنْ يَمُنَّ عليه بما شاء منه، وذلك بعد أنْ أخجله بمدحه له، وذلك حين وصف أنامله بالسحابة السارية التي تجود بمائها على الناس كرماً، كما وصف أفعاله بالمفخرة التي يتباهى بها فاعلها؛ وهذا أسلوب حجاجي يؤدّي إلى إقناع المتلقي، ويجعله مستعدًّا لتنفيذ ما يُطلب منه، وهو يدلُّ على ذكاء الشعراء، بل على دهائهم، يقول:

يامَن أنامِلُهُ كالعاِضِ السَّارِي وفعلُهُ أبداً عارٍ مِنَ العارِ

أما تَرى الثَّلْجَ قد خاطَتْ أنامِلُهُ ثوباً يُزَرُّ على الدُّنيا بأَزْرارِ

نارٌ ولكنّها ليست بِمُبْدِيَةٍ نَوْراً وماءٌ ولكنْ ليس بالجاري

والرَّاحُ قد أعوزَتْنا في صَبِيحَتِنا بيعاً ولوْ وَزْنَ دِينارٍ بِدِينارِ

فامْنُنْ بما شِئتَ من راحٍ تكونُ لنا ناراً فإنا بلا راحٍ ولا نارِ[2]

وهو يستهدي النبيذ حتى في مرضه وقيامه بـ(الفصد) (إخراج الدم من أحد أجزاء الجسم)، إذ يوجّه كلامه لعائده، ويطلب منه أنْ يجود عليه بالنبيذ، معتمداً في ذلك الاستهداء فن الجناس؛ ليكون معيناً على طلبه، فهو لا يشفى من دمه المُراق إلّا بكأس ذلك النبيذ (الشفاء، يشفى)، لذا يروم الخمرة أنْ تأتيه صرفاً؛ لتصرف عنه صرف الدهر (صَرفاً، لصرف، صرفا)، وما الجود لديه إلّا بالنبيذ (الجود، تجود)، فضلاً عن أنّ الشاعر يعدّ الظُّرْفَ في حاله هذه هو أنْ يكون ظَرف الخمرة كبيراً؛ ليسع مقداراً كبيراً منها (الظُّرف، الظَّرفا)، وبهذا استطاع الشاعر توظيف فن الجناس توظيفاً مفيداً بالنسبة لاستهدائه، فنجح في توصيل رسالته لمتلقيه من طريقه، وهذا واضح في قوله:

أرقْتُ دَماً أرجو الشِّفاءَ وإنّما بكأسِ مُدام مَنْ أراقَ دَماً يُشْفَى

فجُدْ لي بها صِرْفاً إذا ما مَزَجْتُها أتاحَتْ لِصَرْفِ الدَّهْرِ من راحَتِي صَرْفا

فما الجُودُ إلّا أنْ تَجُودَ بِقَهْوةٍ وما الظُّرْفُ إلّا أنْ تُكَبِّرَ لي الظَّرْفا[3]

وتتكرر الصورة نفسها لدى الشاعر نفسه، ولكن ليس في فَصْدِه، بل بعد انتهاء شهر رمضان، إذ يستهدي الشاعر النبيذ من احد أصدقائه، بعد وصفه إيّاه بالكرم، ويطالبه بإرسال النبيذ في ظروف كبيرة؛ لكونها هدية، فضلاً عن أنّ الظروف الكبيرة تدلّ على ظرف مُهدِيها، ولا أرى ضرورة في إطالة الحديث عن الأسلوب الذي اتبعه الشاعر في أبياته هنا، ولكن أشير إلى أنّه جعل أسلوب الحجاج فيها متعالقاً مع فن الجناس، ليغدو أكثر إقناعاً لمتلقّيه، طامحاً إلى تحقيق ما يصبو إليه في قوله:

أبا الحُسينِ دَعَتْ نفسي أمانِيها إلى يَدٍ منكَ مَشْهُورٍ أيادِيها

تَصَرَّمَ الصَّومُ عَنَّا بعدَ ما ظمِئَتْ لهُ النُّفُوسُ وفَقْدُ الرَّاحِ يُظْمِيها

فَجُدْ بعِذْراءَ مِثْلِ الشَّمْسِ نَعْذِرُها إنْ أظْهَرَتْ صَلَفاً للحُسْنِ أُتِيها

واعلَمْ بأنَّ ظُرُوفَ الرَّاحِ إنْ كَبُرَتْ عندَ الهَدِيَّةِ أبدتْ ظُرْفَ مُهْدِيها[4]

---

(1) ديوان السّريّ الرّفّاء 367/1- 368.
(2) م.ن 183/2.
(3) م.ن 439/2.
(4) م.ن 761/2.

إنّ المتلقي حين يطّلع على الأمور التي استهداها الشعراء العباسيون، ينتابه العجب منها، لكونها أموراً بسيطة جدًّا، وزهيدة الأثمان، لا تستحق أنْ يطلبها الشعراء لأنفسهم، ولكن ذلك يدلّ على ضعف نفوس كثيرين منهم، إذ نزلوا إلى مناطق سفلى جدًّا، ولم يحترموا مكانتهم الاجتماعية، ولم يحفظوا كرامتهم بطلباتهم تلك.

فمن الأمور الزهيدة جدًّا التي استهداها الشعراء من الآخرين (الجُبّة)، فقد حرص بعضهم على طلبها من الأصدقاء أو الممدوحين، ومن أولئك الشاعر مطيع بن إياس الذي صارح صديقه بإعجابه بجبّته، وعشقه لها، طالباً منه أنْ يهديها له؛ ليتباهى بها أمام الآخرين، ويُقْسِم له أنّه لو أهداها له؛ سيجعلها أفضل الثياب التي لديه؛ إلّا أنّ استهداء الشاعر هنا كان غاية في إهدار الكرامة؛ فطلبه أشبه بالاستجداء، إلى الدرجة التي دفعته إلى تفدية صاحب الجبّة بنفسه وأهله، في سبيل الحصول عليها، مع أنّها لا تستحق إهدار الكرامة إلى تلك الدرجة التي دفعته إلى القول:

إنّ لي حاجةً فَرَأْيَكَ فيها لك نَفْسي فِدى من الأوصابِ
وهي ليست ممّا يُبَلِّغُها غيـ ـري ولا يستطيعُها في كتابِ
غير أنّي أقولها حينَ ألقا كَ رويداً أُسِرُّها في حِجابِ
إنّني عاشِقُ لجبّتِكَ الدَّكـ ـناءِ عِشقاً قد حالَ دون الشَّرابِ
فاكسُنيها- فدتكَ نفسي وأهلي- أَتَباهى بها على الأصحابِ
ولكَ اللهُ والأمانةُ أنْ أجـ ـعَلَها عُمْرَها أميرَ ثيابي(1)

أمّا الشاعر مهيار الديلمي، فانه يختلف في طريقة استهدائه للجبة عن الشاعر الذي سبقه، فهو يمازح صديقه باستهداء جبّته، بعد أنْ يمدحه بصفة الكرم ويدعو له، فبعد ذلك يطلب منه أنْ يكسوه جبّته؛ فقد جاء الشتاء وليس للشاعر ما يرتديه فيه؛ ليقيه من البرد القارص ولكي يحقق الشاعر مبتغاه، عمد إلى إحراجه؛ بوصفه له بأنّه لم يسبقه أحد إلى المكرمات، وهذا أسلوب حجاجي يجعل السامع يحقق ما يُطلب منه من دون تردد، يقول:

استمع - أسمعتْ عطاياك أذْنيـ ـك- ثناءً تبحُّ منه الحلوقُ
أخلق الدّهرُ من سماحك ما أنـ ـتَ بتجديده عليَّ خليقُ
فاكسني - صرَّحَ الشتاءُ وما أنـ ـتَ إلى مكرماته مسبوقُ-
جُبَّةً جُنَّةً من القُرِّ قد وا فق معنى تصحِيفها التحقيقُ(2)

وقد يكون استهداء الجبّة مدعاة للشاعر إلى هجاء صاحبها، والسبب هو رفضه إهداءها إلى الشاعر، وذلك ما فعله دعبل بن علي الخزاعي، فقد استهدى جُبّة المطلب بن عبدالله بن مالك الخزاعي، ولكن الأخير رفض إعطاءَها له بحجّة أنّها كانت لأبيه، الأمر الذي دعا الشاعر إلى هجائه، ونلحظ في أبيات دعبل الهجائية استناده إلى دليل تاريخي؛ وتضمينه في هجائه، وهو نوع من الحجاج أيضاً، إذ عمد الشاعر إلى الاستعانة ببُرد النبيّ محمد (صلّى الله عليه وآله وسلم)، الذي لبسه الخلفاء من بعده، وكان الناس يرونهم وهم يلبسونه، وتأتي الاستعانة بهذا الدليل لتكذيب صاحب الجبّة في حجته، الأمر الذي يؤدّي إلى اتّهامه بالكذب والبخل من باب غير ظاهر، قال:

ما يَتَقَضّى عَجَبِي ما عِشْتُ، من مُطَّلَبِ

---

(1) مطيع بن إياس وما تبقى من شعره، ضمن شعراء عباسيون (غرنباوم)/32.
(2) ديوان مهيار الديلمي 289/2.

سألتُهُ دُرَّاعَةً لباسُها يَجْمُلُ بِي

فقال لي: أكرَهُ أنْ تُلْبَسَ مِن بَعدِ أبي!

وقد رأى البُرْدَ ومَن يَلْبَسُهُ بعدَ النَّبِي![1]

وقد يحدث أنْ يستهدي بعض الشعراء – على نطاق ضيّق جدًّا– أشياء ثمينة، ولها قيمة مادية حقيقية، مثل الفصّ الذي غالباً ما يكون حجراً ثميناً يوضع في الخاتم، فيراه بعض الشعراء في أيدي ممدوحيهم، فيسعون إلى الحصول عليه، من طريق استهدائه منهم، مثلما فعل البحتري في أثناء مدحه الخليفة المعتزّ بالله، واستهدى النص الذي كان في إصبعه، وقبل أنْ يطلب الشاعر منه ذلك الفصّ، عمد إلى تعداد فضائل الخليفة عليه، فهو أكرمه بإهدائه الخيول الكثيرة، ونثر عليه الأموال الطائلة، وكذلك الفضّة، وحمّالات السيوف، وبعد ذلك يطالب الخليفة بأنْ يختم كرمه الوفير معه بوهبه الياقوتة التي لديه، ثم يصفها وصفاً دقيقاً لا يدلّ إلّا على شدّة جمالها، بحيث يغار احمرار الورد من لونها، وما إلى ذلك من الصفات الحسنة، ثم يخبره بأنّ مثله قد اعطى أضعاف مثلها، وليس ذلك عجيباً، مثلما ليس عجيباً أنْ يتدفق البحر بجوده، وسرعان ما يختم قصديته بمدحه مرّة أخرى، ليضمن حصوله على ما أراده منه، قال:

حَمَلْتَ على عَشْرٍ من البرْدِ مَرْكَبِي عِجالاً علَيهِنَّ الشَّكِيمُ المُحلَّقُ

وأكْثرتَ زادِي مِن بُدُورٍ تتابَعَتْ بجُودِكَ فِيهِنَّ اللُّجَينُ المُطَرَّقُ

ومُنْتَسِباتٍ للوَجِيهِ ولاحِقٍ كُمَيتٌ يَسُرُّ الناظِرِينَ، وأبْلَقُ

ومِن خِلَعٍ فازتْ بلُبْسِكَ فاغْتَدَى بها أَرَجٌ مِن طِيبِ عَرْفِكَ يَعْبقُ

عَلَيها رِداءٌ من حَمائِلِ مُرْهَفٍ صَقِيلٍ يَزَلُّ الطَّرْفُ عنه فيزْلَقُ

فهل أنتَ يابنَ الراشِدينَ مُخَتِّمِي بياقُوتَةٍ تَبْهَى عَلَيَّ وتُشْرِقُ؟

يَغارُ احمِرارُ الوَرِدِ من حُسْنِ صِبْغِها ويَحْكِيهِ جادِيُّ الرَّحِيقِ المُعَتَّقُ

إذا بَرَزَتْ والشّمْسَ قلتَ: تَجَارَتا إلى أَمَدٍ، أو كادَت الشَّمْسُ تَسْبِقُ

إذا التَهَبَتْ في اللَّحظِ ضاهى ضِياؤُها جَبِينَكَ عِندَ الجُودِ إذ يَتأَلَّقُ

أُسَرْبَلُ منها ثَوبَ فَخْرٍ مُعَجَّلٍ ويبقى بها ذِكْرٌ على الدَّهرِ مُخْلَقُ

علامةُ جُودٍ منك مُبِينَةٌ وشاهِدُ عَدْلٍ لي بنُعْماكَ يَصْدُقُ

ومِثْلُكَ أعطاها وأضعافَ مِثْلِها ولا غَرْوَ للبَحرِ انبَرَى يَتَدَفَّقُ

لَئِنْ صُنْتُ شِعْري عن رِجالٍ أعِزَّةٍ فانّ قوافيهِ بِوَصْفِكَ ألْيقُ

وإنْ وَلِيَ العُمَّالُ مِنِّي مَبَرَّةً فَمُسْتَعْمِلُ العُمَّالِ أَحْرى وأخْلَقُ[2]

وبَدَت قصيدة الصنوبري في ممدوحه أبي العباس الرشيدي، نسخة مصوَّرة عن قصيدة البحتري السابقة، فالبناء نفسه، وكذلك استهداء الفصّ، ثم خاتمة القصدية المشابهة لها أيضاً، فقد بنى الشاعر قصيدته على وفق بناء البحتري لقصيدته، وما يهمّنا في

(1) شعر دعبل بن علي الخزاعي/59، الدُّرَّاعة: جبّة مشقوقة المقدّم.

(2) ديوان البحتري 3/1537- 1538، البرْد: جمع بريد وهو الرسول ، الشكيم: في اللّجام الحديدة المعترضة في فم الفرس، والشكيم: العطاء ، المحلّق: الذي جعل كالحلقة، المطرَّق: الذي رقّق، البدور: جمع البدرة، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم، الوجيه ولاحق: من أسماء الخيل، الحمائل: علّاقات السيوف، الجادي: الزعفران، أسربل: أكسي بالسربال وهو القميص أو كل ما يلبس.

موضوع بحثنا هو أنّه استهدى الفصّ من ممدوحه، ثم عمد – بعد استهدائه– إلى وصفه وصفاً مجملاً؛ محاولاً إقناع ممدوحه واغراءَهُ بوهبه له؛ من طريق الحجاج المؤثر الذي بدا لنا في ضمن المديح، الذي بدا فيه الشاعر، وكأنه يستجدي ذلك الفصّ من ممدوحه، إذ قال:

أبا العبّاسِ ياشمسّ الـ ـعُلا من آلِ عبّاسِ
أيا ابن الخلفاءِ الكا شفينَ البؤسَ بالباسِ
ويا باني آساسِ عُلاً من فوقِ آساسِ
ومَن إنسانُ عيني مِنْـ ـهُ في أكملِ إيناسِ
أليسَ الفصُّ للخا تَمِ مثلَ التاج للراسِ
فانْعِمْ أيّها الحالي من الإنْعام والكاسي
بفصٍّ لسهام اللحـ ـظِ في هيئةِ بُرْجاسِ
كموجِ اللّجّةِ الجاري وطَوْدِ الجبلِ الراسي
متى أحضرتُ مقباساً يكنْ مقباسَ مقباسي
أو استحلاهُ جُلَّاسي جَلا أبصارَ جُلّاسِي
وقال الناسُ أهداهُ إليه سيّدُ النّاسِ
وما بالُ رجائي فيـ كَ لا يعلو على ياسي
وأيّامُكَ أعيادي وأوقاتُكَ أعراسي
وقلبي بكَ عِزاً قَلْـ ـبُ عباسِ بنِ مرداسِ
سأطْريكَ بأشعارٍ تهيجُ الذِّكرَ للنّاسِ
توالى نظمُها فيكَ تواليَ وَرَقِ الآسِ(1)

وللفرو والثياب نصيب – وإنْ كان قليلاً – في استهداءات الشعراء العباسيين، فأبو تمام بدا مُبدعاً في استهداء الفرو في ممدوحه (عليّ بن مُرّ)، وكان الإبداع في وصف الفرو، وليس في طلبه، فابتدأ قصيدته بحكمة عن أنّ الدار تُباعِدُ مَن يجتويها ويكرهها، وتقرّب مَن يختارها، ويحمد العيش بها، وينسى تعبه بسفره مَن استقرّت به داره وسلم، ثمّ شخّص الأيام حين استعار لها خزرة العيون للذين لا يتحزّمون للقتال، فقال :

دَنا سَفَرٌ والدّارُ تَنأَى وتُصقِبُ ويَنْسَى سُراهُ مَن يُعافَى ويُصْحَبُ
وأيّامُنا خُزْرُ العُيونِ عَوابسٌ إذا لَمْ يَخُضْها الحازِمُ المُتَلَبِّبُ(2)

ثم يدخل مباشرة – بعد هذه المقدّمة – إلى بيان حاجة المرء للفرو في شدّة البرد، قائلاً:

ولابُدَّ من فَرْوٍ إذا اجتابَهُ امرُؤٌ كفى وهو سَامٍ في الصَّنابِرِ أغْلَبُ(1)

(1) ديوان الصنوبري /169- 170، البرجاس: غرض الرمي، عباس بن مرداس السلمي: من شجعان العرب.
(2) ديوان أبي تمام 277/1، المُتَلَبِّب: المتحزّم للقتال.

وبعد الإعلان عن تلك الحاجة، يعمد أبو تمام إلى وصف الفرو الذي يرومه، فهو يفضّله فتيًّا غُمْراً لم يُمارس الحروب فيحسرَ الشَّعْرَ عن رأسه، ولم تتقدم سنّه فيشيب، بمعنى أنّه يفضّله جديداً ولم ينقص وبره؛ بسبب كثرة لبسه، ولا رقّ جلده، ولا ضَعُفَ خرزه؛ لكي ينتفع به، فاذا اشتدّ البرد، وترامت الأرض بالصقيع، وهبَّت الريح شمالاً في أقطار البرد، يغدو الشاعر دفآن بهذا الفرو، كأنه في ريح جنوب، بحيث يجعل البردان يرشح عَرَقاً من جسمه، قال:

أمينُ القُوى لم تَحْصُصِ الحربُ رَأْسَهُ ولم يَنْضُ عُمْراً وهو أشْمَطُ أشيَبُ
يَسرُّكَ بأساً وهو غِرٌّ مُغَمَّرٌ ويُعْتَدُّ للأيّامِ حينَ يُجَرَّبُ
تَظَلُّ البِلادُ تَرتَمي بضَريبِها وتُشمَلُ من أقطارِها وهو يُجْنَبُ
إذا البَدنُ المقْرورُ أُلبِسَهُ غَدا لهُ راشِحٌ مِن تَحتِهِ يَتَصَبَّبُ[2]

واذا استثقل مَنكِبُ الرجل حملَ الفرو، فعُدَّ هذا الثِّقل ذنباً، فانّ حشا الرجل يقول : إحسان الفرو إليّ حين يُذنِبُ إليك، فكأنّه يخاطب المَنكب، بمعنى أنّه كلّما ثَقُلَ عليك أحسن إليَّ؛ لأنه كثير الصوف في باطنه، لذلك يقي لابسه شدّة البرد، قال:

إذا عَدَّ ذنباً ثِقْلَهُ مَنْكِبُ امرِئٍ يقولُ الحَشَا: إحسانُهُ حين يُذْنِبُ
أثيثٌ إذا استَعْتَبْتَ مُعْصِفَةً بهِ تَمَلَّأْتَ عِلْماً أنّها سوفَ تُعْتِبُ
يراهُ الشَّفِيفُ المُرْثَعِنُّ فينثَني حَسِيراً وتَغْشاهُ الصَّبا فتَنَكَّبُ
إذا ما أساءَتْ بالثِّيابِ فَقَولُهُ لها كُلَّما لاقَتْهُ أهْلٌ ومَرْحَبُ
إذا اليومُ أمْسى وهو غَضبَانُ لم يَكُنْ طَويلَ مُبالاةٍ بهِ حينَ يَغْضَبُ
كأنَّ حَوَاشِيهِ العُلى وخُصُورَه وما انْحَطَّ منهُ جَمْرَةٌ تَتَلَهَّبُ[3]

ثم يسأل ممدوحه عن موافقته على إهدائه ذلك الفرو الذي اجتهد الشاعر في وصفه، فاذا ما وافق الممدوح على وهبه له، فان الشاعر سيشكره بكثرة الوبر الذي يحتويه الفرو، ثم يذكّره بوصية (المهلّب) في الثياب، إذ قال: " **ما رأيتُ أحداً قطّ بين يديّ إلّا أحببتُ أن أرى ثيابي عليه، فاعلموا يابَنيَّ أنّ ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم** "[4]، قال أبو تمام مستهدياً الفرو:

فهل أنتَ مُهْدِيهِ بمثلِ شكيرِهِ مِنَ الشُّكْرِ يَعلُو مُصْعِداً ويُصَوِّبُ ؟
لهُ زِئبِرٌ يُدْفِي مِنَ الذَّمّ كلّما تَجَلْبَبَهُ في مَحْفِلٍ مُتَجَلْبِبُ
فأنتَ العَلِيمُ الطَّبُّ أيُّ وَصِيَّةٍ بها كان أوصَى في الثِّيابِ المُهَلَّبُ[5]

أمّا استهداء الثياب، فورد في نصّ للسّريّ الرّفّاء، مدح فيه سيف الدولة الحمداني، إذ وصفه بالكرم، في الوقت الذي افتخر فيه بشعره، وعدَّد مزايا حياته في ظلّ ممدوحه، ومن بعد ذلك استهداه ثياباً، ولكي يحظى بها؛ أخبره أنّها أيسر ما يمكن أنْ يجود به، ثم ختم أبياته بتفضيل سيف الدولة على الملوك الآخرين؛ لأنه لا يأتي إلّا بالقرارات الصائبة، في حين يخفى ذلك الصواب على سواه من الملوك، قائلاً:

---

(1) م.ن 277/1، الصنابر: شدّة البرد، الواحد صِنّبْر.
(2) م.ن 278/1.
(3) م.ن 279/1، أثيث: كثير الصوف الذي في باطنه، المعصفة: الريح الشديدة، الشفيف : شدّة البرد، المُرْثَعِنُّ: أصله المسترخي.
(4) م.ن 281/1.
(5) م.ن280/1- 281، الشكير: صغار الريش، له زئبر، أي للشكر.

لَئِنْ سَرَتِ الرِّكابُ بِحُرِّ مَدْحي فقد سارتْ بجدواكَ الرِّكابُ
ولي في ساحَتَيْكَ غديرُ نُعْمَى صَفا مَتْناهُ واطَّرَدَ الحَبابُ
وظِلٌّ لا يُمازِجُهُ هَجِيرٌ وشمسٌ لا يكدِّرُها ضَبابُ
وأيامٌ حَسُنَّ لَدَيَّ حتّى تَساوى الشّيبُ فيها والشَّبابُ
وإنْ تُلْحِق ثَوَابَكَ بي ثِياباً فأيْسَرُ ما تجُودُ به الثِّيابُ
إذا احتَفَلَ النَّدِيُّ فأنتَ أرْيٌ وإنْ حَمِيَ الحديدُ فأنتَ صابُ
وإنْ خَفِيَ الصَّوَابُ على مُلُوكٍ فإنَّ جميعَ ما تأتي الصَّوابُ(1)

إنّ القارئ لَيَعجب حين يجد بعض الشعراء العباسيين يستهدون أموراً غريبة وغير منطقية، مثل اللّجام والأضحية والدابة، ولعلّ إضفاء طابع السخرية وإثارة الضحك سببٌ أساس لمثل تلك الاستهداءات، فالشاعر أحمد بن أبي طاهر طيفور يستهدي من أحد مُخاطبيه لجاماً لحماره؛ لكونه يمتلك سرجاً له، ولكنه يفتقد اللّجام، وعلى حدِّ قول الشاعر: إنّ الحمار – بحاله تلك- غدا مثل المرأة الجميلة التي تمتلك حُلياً ولكنها تفتقد إلى النظام (السلك) الذي يجمعها، فلا فائدة من حُليها من دون ذلك النظام، وهذه هي حال الحمار من دون اللّجام، يقول:

جُعِلْتُ فِداك قد أمسى حماري له سَرْجٌ وليس له لجامُ
كمثل العاطل الحسناءِ أمستْ لها حَلْيٌ وليس لها نِظامُ(2)

إن الدليل القاطع على أنّ مثل هذه الاستهداءات كانت لإثارة الضحك في المجالس، ما نظمه البحتري من الأبيات التي يستهدي فيها أضحية من ممدوحه، واصفاً قوله (بالخبر الطريف)، فهو لا يمتلك إلّا حماراً، والحمير لا تُقْبَل بوصفها أضحيةً، لذا يستهديه تلك الأضحية، وإنْ لم يستجِب الممدوح، فان الشاعر سينحر حماره غداة يوم النحر؛ لكونه لا يمتلك غيره، قال:

جُعِلْتُ فِداكَ إلي خَبَرٌ طريفُ وأنتَ بكلِّ مَكْرُمَةٍ خَبيرُ
غداةَ النَّحْرِ يَنْحَرُ كُلُّ قَومٍ ولا شاةٌ لَدَيَّ ولا بعيرُ
بَلَى ! عندي حِمارٌ لي، فقُلْ لي أتُقْبَلُ مِنْ مضَحِّيها الحميرُ؟
لَئِنْ لم تَفْدِهِ- تفديكَ نَفْسي- بِذِبْحٍ فهو في غَدِهِ نَحِيرُ! (3)

وفي البيت الأخير نظرة من فكر الشاعر إلى قوله في الآية الكريمة: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(4)، وهذا دليل على إفادة الشاعر من أسلوب القرآن الكريم في النظم، وتلقّي الأفكار، وبناء الصور.

ومن استهداء اللّجام والأضحية، ننتقل إلى قصيدة ابن طباطبا العلوي، التي استهدى فيها دابة له من أحد الأمراء، علماً أنّه لا يستهدي دابة اعتيادية، بل يضع لها شروطاً معينة وصفات لا تدلّ إلّا على حصان مميز جدًّا، لذا نراه يعدّد لممدوحه مجموعة من الصفات التي يرغب في أنْ تكون مقترنة فيما يستهديه منه، ثم يلجأ – في نهاية قصيدته- إلى الطلب منه بعدم إحراجه؛ لكونه – أصلاً – بدا مُحْرَجاً منه في اثناء استهدائه هذا، قال:

(1) ديوان السّريّ الرّفّاء 381/1- 382.
(2) أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته- شعره- رسائله، ضمن: أربعة شعراء عباسيون/321.
(3) ديوان البحتري 1096/2، النحير: المنحور.
(4) الصافات/107.

سأغدو منه محمولاً على أدهم هملاجِ
بلونٍ آبنوسيٍّ ووجهٍ كسنا العاجِ
وثيق خلقه لم يؤتَ من طيٍّ وادماجِ
قصير الظهر محبوك عظيم الرّدف رجراج
كمنشور الميادين به سرعة ادراجِ
ويُسبي السَّمعَ منه عنـ ـدَ إلجامٍ واسراجِ
صهيل في لجامٍ علكة ايقاعِ صناجِ
له منه على ايقا عه ألحانُ أهزاجِ
عليه أبداً من صبـ ـغه سربال ديباجِ
أزح عنّي به الهمْـ ـمَ ولا تولع بإحراجي
فلم اقتضك المركب إلّا بعد إحراج(1)

ويأتي الثلج والمداد والمسك في خاتمة قائمة استهداءات الشعراء العباسيين، فهي آخر ما استهداه الشعراء من الآخرين بمختلف مناصبهم السياسية ومكاناتهم الاجتماعية، فالسّريّ الرَّفَّاء يستهدي الثلج من صديق له، وكان طابع المزاح واضحاً في أبياته الأربعة التي نظمها، فيبدأ قوله ببيت يتضمّن حكمة لطيفة، فالنّاس اما جواد أو بخيل، فالأوّل ينال الثناء من الآخرين، في الوقت الذي لا ينال فيه البخيل إلّا الهجاء، ثم بعد هذا المطلع، الذي اتسم بطابع محرج بالنسبة للمُخاطَب، يدخل الشاعر مباشرة إلى طلبه، فهو قد فقد الثلج في يوم حار، يُذيبُ الصخور، لذا يريد من صديقه الثلج، وبالمقابل فانه سيربح ثناء الشاعر عليه، طالباً منه عدم التعجّب من شعره البارد، فهو يطلب ثلجاً بهذا الثلج، ويقصد بشعره البارد الذي يقول فيه:

رأيتُ النّاسَ ذا جُودٍ ومَنْعٍ فذا يُثْنَى عليهِ وذاكَ يُهْجَى
فَقَدْتُ الثَّلْجَ في إبَّانِ قَيْظٍ تَذُوبُ لهُ الصُّخُورُ الصُّمُّ وَهْجا
فَجُدْ بالقُوتِ منهُ تُحزْ ثَناءً أراكَ بِفَضْلِهِ أَولَى وأحْجَى
ولا تَتَعَجَّبَنْ من بَرْدِ شِعْرِي فإنّي طالِبٌ بالثّلْجِ ثَلْجا(2)

لحظنا في أكثر النصوص السابقة، اعتماد الشعراء فيها على مدح الآخر قبل إخباره بما يرغبون في استهدائه منه، وهذا أسلوب حجاجي؛ عَمِدَ إليه الشعراء؛ لإقناع الآخر بتنفيذ مطاليبهم، وعدم إحراجهم في حال عدم الاستجابة لهم ولما يرغبون في الحصول عليه، فالحِجاج يجعل المتلقي مُذعناً إلى حدٍّ بعيد، فلا يجد له ملجأً غير تنفيذ ما يُطْلَب منه، وهذا ما فعله الطغرائي أيضاً، حين وجد نفسه بحاجة إلى المداد، فبدأ قوله بمدح مَن يستهديه حاجته، فزعم أنّ له فضل الإمارة في الكتابة، ومن ثم يكون استهداؤه للمداد على شكل شكوى تعبّر عن نفاده لديه، وعلى الممدوح الجود به لمادحه، قال:

يامَن إذا اجتمعَ الكُتَّابُ كان له فضلُ الإمارةِ مُقتاداً كتيبَتَها

(1) شعر ابن طباطبا العلوي/39- 40، العلكة: شقشقة الجمل عند الهدير.
(2) ديوان السّريّ الرّفّاء 23/2.

شَكَتْ إليكَ دواتي شَيبَ لِمَّتِها وأنتَ أخلَقُ مَنْ طَرَّى شَبِيبَتَها[1]

من الواضح أنّ الشاعر في بيته الثاني؛ اعتمد أسلوب التشخيص القائم أساساً على الاستعارة المكنية، إذ جعل الدواة هي التي تشكو نفاد المداد منها، وليس الشاعر، فضلاً عن استعارته الشيب لها، كناية عن الأمر نفسه، وهذا لا يدلّ على تمكّن الشاعر من رسم لوحته بمقدرة عالية، ومهارة فنية متميزة.

ومن باب ضرب المثل القائل: ختامها مسك، سيكون ختام المحور مسكاً أيضاً، إذ استهدى الشاعر ابن الخياط من ممدوحه مسكاً؛ فهو يرغب فيه كرغبة العاشق في معشوقته، مُغرياً إيّاه بالمديح، كعادة الشعراء الآخرين الذين سبقوه، كما أنّه لا يترك للممدوح مجالاً لعدم تنفيذ رغبته؛ من طريق إحراجه بقوله له: إنّ الآخرين بخلوا به عليَّ، وإنّك مختلف عنهم، الأمر الذي يؤدي بالممدوح إلى الاستجابة له، وإهداء المسك لمَن يرغب فيه، أَلَا وهو الشاعر الذي قال:

أبا المَجْدِ كمْ لكَ من طالِبٍ يرى بكَ أفضَلَ مَطْلُوبِهِ

سألْتُكَ مِسْكاً وَوَجْدِي بهِ كَوَجِدِ المُحِبِّ بمحبوبِهِ

ولو قد ذَكَرْتُكَ في مَحْفِلٍ غَنِيتُ بِذِكْرِكَ عن طِيبِهِ

وذِكْرِي لِمِثْلِكَ نِعْمَ البَدِيلُ إذا ضَنَّ غيرُكَ عَنّي بهِ[2]

إذن، كانت النصوص السابقة كلّها لشعراء آثروا استهداء أشياء من الآخرين، ولم يألوا جهداً في الإعلان عن رغباتهم في امتلاك تلك الأشياء، فاتبعوا أساليب متنوعة من أجل إقناع مالكيها بإهدائها لهم، وعدم إحراجهم، كما تبيّن لنا فيما مضى من البحث.

المحور الثالث- الشاعر مُهدًى له:

كان الشاعر العباسي – في المحورين السابقين- امّا مُهدِياً، بمعنى أنّه مَن يبادر بإعطاء الهدايا إلى الآخرين، أو مُسْتهدِياً، يطلب تلك الهدايا من الآخرين، ولكن الشاعر – في هذا المحور – لا يُهدي، ولا يستهدي، بل يتلقّى الهدايا من الآخرين؛ من دون سعي منه أبداً، ولحظنا تنوّع الهدايا التي تمّ منحُها إلى الشعراء من لدن المُهدِين، ولكن لفت انتباهنا إهداء الأشياء المتعلقة بالطعام والشراب، فهي أكثر الأشياء التي تمّ إهداؤها إلى الشعراء، وكان المتنبي واحداً من الشعراء الذين نالتهم الهدايا الخاصة بهذا الأمر، أعني: الأطعمة، إذ أهداه (عبيد الله بن خلكان) هدية فيها سمك من سكر ولوز في عسل، فكتب له الشاعر خمسة أبيات على الجامة بالزعفران، مضمونها: إنّ ودّ الشاعر للمُهدي قد تجاوز الحدّ، بحيث لم يَعُدْ يقبل الزيادة، فالهدية لم تَعُدْ تزيده ودًّا، ثم يخبره بأنّه أعاد الجامة إليه؛ وهي مملوءة ودًّا بما كتبه على جوانبها، فضلاً عن أنّ أخلاق المُهدي الشريفة؛ تأبى عليه أنْ لا يشتاق إلى أوليائه ويتذكّر عهودهم، ويُنهي المتنبي مقطوعته بمديح عذب لذلك الرجل؛ إذ صوّره فيه بأنه لو كان زماناً ينبت الأزهار؛ لكان هو زمان الربيع، وكانت أخلاقه الورد، بمعنى أنّه بين الرجال كالربيع بين الفصول، وأخلاقه بمنزلة الورد من الأزهار، إذ قال:

أقْصِرْ فلستَ بزائِدِي ودًّا بَلَغَ المَدَى وتجاوَزَ الحَدَّا

أرسلْتَها مملُوءَةً كَرَماً فَرَدَدْتُها مَمْلُوءَةً حَمْدا

جاءَتْكَ تَطْفَحُ وهيَ فارِغَةٌ مَثْنى بهِ وتَظُنُّها فَرْدَا

تَأْبَى خلائِقُكَ التي شَرُفَتْ أنْ لا تَحِنَّ وتَذْكُرَ العَهْدا

لو كُنْتَ عَصْراً مُنبِتاً زَهْراً كُنتَ الرَّبيعَ وكانتِ الوَرْدا[3]

(1) ديوان الطغرائي/105.
(2) ديوان ابن الخياط/129.
(3) شرح ديوان المتنبي 49/2.

ولم يكتفِ المتنبي بذكر هذه الهدية بالأبيات السابقة فحسب، بل عزّزَها بمقطوعة أُخرى، أثنى فيها على المُهدي، وذكر فيها أنّ الناس مشغولون بالطمع والحرص على حطام الدنيا، بينما الممدوح مشغول بتبديد الحطام كرماً، وأنّ الناس ضربوا المثل بحاتم الطائي، في حين كان الأولى أنْ يضربوا به المثل؛ لكونه ارتقى الغاية في الجود، ثم يرحّب بهديته التي بعثها إليه، وكذلك يرحب بالرُّسل، ثم يُسهب في وصف هديته، ويتساءل عن كيفية مجازاته لممدوحه على إحسانه وكرمه، قائلاً:

قد شَغَلَ النّاسَ كَثْرَةُ الأَمَلِ وأنتَ بالمَكْرُماتِ في شُغُلِ
تَمَثَّلوا حاتِماً ولو عَقَلُوا لكُنْتَ في الجُودِ غايةَ المَثَلِ
هَدِيَّةٌ ما رأيتُ مُهْدِيَها إلّا رأيتُ العِبادَ في رَجُلِ
أقَلُّ ما في أقَلِّها سَمَكٌ يَلْعَبُ في بِرْكَةٍ مِنَ العَسَلِ
كيف أُكافي على أجَلِّ يَدٍ مَن لا يَرى أنّها يَدٌ قِبَلِي(1)

وكان النبيذُ من المور التي أهداها بعضهم إلى الشعراء، ومنهم البحتري الذي جاءته هدية من (عبدالله بن الحسين بن سعد)، تتضمّن نبيذاً فاخراً، الأمر الذي دعا الشاعر إلى مدح المُهدِي، ومن ثم وصف هديته ببعض أبيات من الشعر، فهي – لديه– من خير الهدايا، وهي كالورد، إلّا أنّها لَبِسَت زرقة الزجاج، فغدت مثل الذهب واللازورد في جمال ألوانها الصافية، قال:

حَبَّذا أنتَ مِن مُتَمِّمِ بِرٍّ يُفْرِحُ النَّفْسَ، أو مُعَظِّمِ رِفْدِ
طَرَقَتْنا تِلكَ الهَدِيَّةُ والصَّهْـ ـباءُ مِن خَيرِ ما تَبَرَّعْتَ تُهْدِي
قد تَرَكْنا لكَ المَرَاكِبَ مِن أحْـ ـوى غريبٍ في لونِهِ أو سَمَنْدِ
و(بَني الرُّوم) بين أبيضَ بَضٍّ مُشْرِقٍ لونُهُ وأسْمَرَ جَعْدِ
واقتَصَرْنا على التي فاجَأتْنا وَردَةٌ عندما استُشِفَّتْ لِوَرْدِ
لَبِسَتْ زُرْقَةَ الزُّجاجِ فجاءَتْ ذَهَباً يَسْتَنِيرُ في لازَوَرْدِ(2)

ومدح الصنوبري (أبا اسحاق السلماني)؛ لكونه أهداه نبيذاً أيضاً، لكن المدح لم يكن بمقدار وصف النبيذ في قصيدة الشاعر، إذ اقتصر على البيت الأول والأخير منها فقط، علماً أنها تتألف من ثلاثة عشر بيتاً، في الوقت الذي خصص فيه الأبيات الأُخَر لوصف النبيذ، فعدد صفاته تعدادًا سريعاً، تلك السرعة بَدَتْ ظاهرة في وزن الشعر وموسيقاه، وكأنّ الشاعر يوحي– من طريق تلك السرعة– برغبته في التفرّغ لشرب النبيذ سريعاً، يقول:

ياخيرَ مُسْتَفاضِ فاضَ بخيرِ خَيرِ
أمطرتني نبيذاً كالعارضِ المَطيرِ
مِمّا ثوى دهوراً ما شِئْتَ مِن دهورِ
واهًا لَهُ كبيراً في بهجةِ الصّغيرِ
أقبلَ في إناءٍ مُقابَلِ الأُمُورِ

(1) م.ن 290/3- 291.
(2) ديوان البحتري 560/1، الأحوى: الأسود، السمند: الفرس، فارسية، وهو لون خاص بالفَرَس يميل إلى الصفرة، الجعد: الغليظ، اللازورد: معدن يتخذ للحلي، أجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة.

مُقَنَّعاً بشَعْرٍ مُقَلَّداً بزيرِ
يَسعى بها غريرٌ كالرشإ الغريرِ
إذا علا سَناهُ على يدِ المديرِ
تقولُ روحُ نارٍ تسكنُ جسمَ نورِ
يفترُّ عن ثُغورٍ أبهى من الثغورِ
من لؤلؤٍ نضيدٍ أو لؤلؤٍ نثيرِ
ماتت به همومي وعاشَ لي سروري
ولم تزلْ خطيراً تجودُ بالخطيرِ (1)

وبدت الهدية التي قُدِّمَتْ إلى الشاعر مسلم بن الوليد مختلفة عن سواها من الهدايا؛ لكونها أُهديت من لدن امرأة، وكانت الهدية عبارة عن فاكهة من جنس الليمون، تدعى (الترنج)، لذا كان الشاعر فرحاً بها، فذلك واضح في أبياته الثلاثة التي نظمها توثيقاً للهدية، إذ عدَّها تشبه ريحَ التي أهدتها له، وتمنى لو أنّها أهدته وِصالها، فذلك كان لديه أَلَذ من الفاكهة وأطيب، كما يقول:

جَزَى اللهُ مَن أهدى الترنجَ تَحِيَّةً ومَنَّ بما يهوى عليه وعَجَّلا
أتتنا هدايا منهُ أشبهنَ رِيحَهُ وأشبه في الحسن الغزالَ المُكَحَّلا
ولو أنَّهُ أهدى إليَّ وِصالَهُ لكان إلى قلبي أَلَذَّ وأفضلا(2)

ويتحدّث الصُّوري عن عِنَبٍ أُهْدِي إليه، وكان مُغطّى بورقه، وفي مقطوعته عدّ الهدية تحفةً؛ جعلته مسروراً، ووصف العنب بشدّة السواد؛ بحيث تخيّله من تحت الأوراق التي غطّته، فصوص الخواتم التي تتختّم بها المرأة، والتي تبدو من تحت كُمٍّ ثوبٍ من الحرير، وهو تشبيه جميل ونادر، لا أعتقد أنّ شاعراً سبقه إليه، قال:

جاءَنا منكَ تُحفةٌ نحنُ منها أبداً في تَضاعُفِ السَّراءِ
عنبٌ أسودٌ كأنَّ عليه حُلَلًا من حَنادسِ الظّلْماءِ
خِلْتُهُ في خِلالِ أوراقِهِ الخُضْـ ـرِ ولونِ اسودادِهِ والصَّفاءِ
كفُمُوعٍ على أنامِلِ خَودٍ لُحْنَ من كُمِّ لاذَةٍ خَضْراءِ(3)

وكانت التفاحة الحمراء آخر الهدايا المتعلقة بالطعام والشراب، إذ أهداها (الأمير عضب الدولة) مع طاقتين من النرجس والبنفسج إلى الشاعر ابن الخياط، وفرح بها الأخير فرحاً شديداً، ممّا دعاه إلى التعبير عن فرحته بخمسة أبيات شعرية، عبَّر فيها عن شكره وامتنانه للأمير المُهدِي، وفيها يصوّر الأميرَ أفضل تصوير، فضلاً عن تجسيد صورة الهدية، لاسيما التفاحة الحمراء التي شبّهها بوجه الحبيبة حين يَحْمَرُّ خجلاً، قائلاً:

أهدى الأميرُ إليكَ خَيرَ تَحِيَّةٍ مِن خيرِ بَسَّامٍ أَغَرَّ بَشُوشِ
عَضْبٌ لأكرمِ دَولةٍ وبهاءُ أشْـ ـرَفِ مِلَّةٍ وزعيمُ أيِّ جُيُوشِ

---

(1) ديوان الصنوبري/15، المستفاض: الذي يسأل فيضاً وهو المعروف، مُقَلَّداً: لابساً قلادة، ويعني هنا مربوطاً، الزير: أحد أوتار العود.
(2) شرح ديوان صريح الغواني/335- 336.
(3) ديوان الصُّوري 122/2، اللاذة : ثوب حرير أحمد صيني، ولكن الشاعر جعلها خضراء ؛ لأنه يصف أوراق العنب.

من نَرْجِسٍ وبَنَفْسَجٍ غَضٍّ وتُفْ فَاحٍ كَوَشْيِ الحُلَّةِ المَرْشُوشِ

جُمَلٌ كما قُضِيَتْ مواعِدُ عاشِقٍ مِن ناصِحٍ في الحُبِّ غير غَشُوشِ

فكأنَّها وَجْهُ الحَبِيبِ إذا رَنا وبخَدِّهِ أثَرٌ مِنَ التَّجْمِيشِ(1)

إذن، كانت أكثر الهدايا التي نالها الشعراء مرتبطة بالطعام والشراب كما رأينا، وهي تعبِّر عن حالٍ ظاهرة في المجتمع العباسي حينذاك، فربّما كان التهادي بتلك الأطعمة، فضلاً عن النبيذ، مظهراً من المظاهر المألوفة التي كانوا يعيشونها.

وفيما عدا ذلك، حصل بعض الشعراء على هدايا أُخَر من نوع مختلف عمّا سبق الحديث عنه، مثل بعض الأمور التي سنتحدث عنها، لكني أودّ الإشارة هنا إلى أنّ فرحة الشاعر تكون أكبر وأعمق حين تأتيه الهدية بشكل مفاجئ وغير متوقّع، وذلك ما جسّده المتنبي في بعض الأبيات، حين فوجِئ بهدية (أبي شجاع فاتك)، الذي جاء من الفيوم إلى مصر ليُهدي للشاعر (ألف دينار) من دون أيّة غاية، وهذا ما جعل المتنبي مقدراً له تلك الهدية، من طريق مدحه له فيما بعد، ذاكراً هديته تلك، معرباً عمّا في نفسه من الامتنان إليه، فذلك بدا واضحاً في لغة الأبيات التي كانت مفعمة بالمشاعر والأحاسيس الصادقة، وفيها يعلن المتنبي عن عدم امتلاكه الخيل والمال، ليهديهما إلى الممدوح؛ جزاء له على هديته التي بدأه بها، لذا لا يجد إلّا الثناء له، فقد جاء إحسانه فجأة من دون قول أو انتظار، في الوقت الذي تكون فيه أنعام الناس مقتصرة على الأقوال، ويستمرّ في بيان تفاصيل قوله هذا، إلى أنْ تأتي اللحظة التي يعلن فيها عن أنّه لم يشكره في شعره؛ لأنه أهداه الأموال، فالغنى والفقر أمرٌ واحدٌ لديه، بل شكره لأنّه رأى أنّه من القبيح أنْ يُجادَ له، ويبقى ساكتاً عن الحمد والثناء لِمَن جادَ له، قال:

لا خيلَ عِندَكَ تُهدِيها ولا مالُ فَلْيُسعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسْعِدِ الحالُ

واجْزِ الأميرَ الذي نَعماهُ فاجِئَةٌ بغيرِ قولٍ ونُعْمَى النّاسِ أقوالُ

فَرُبّما جَزَى الإحسانَ مُوْلِيَهُ خَريدةٌ مِن عَذارى الحَيِّ مِكْسالُ

وإنْ تَكُن مُحْكماتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُني ظُهُورَ جَرْيٍ فلي فِيهِنَّ تَصْهَالُ

وما شَكَرتُ لأنّ المالَ فَرَّحَني سِيَّانِ عنديَ إكثارٌ وإقلالُ

لكن رأيتُ قَبيحاً أنْ يُجادَ لنا وأنّنا بقضاءِ الحَقِّ بُخَّالُ(2)

وحين مدح النامي رجلاً يدعى (الحلبي)، أكرمه الأخير بدينار، فقال الشاعر يمدحه، ويصف ديناره بأنه زين المواهب، وأنّه إذا ما رأته عيون الحاسدين ظنّت أنّه كوكب من الكواكب، ثم يدعو له، ولا أرى ذلك إلّا هجاءً له ألبسه الشاعر ثوب المدح، قائلاً:

أبا حسنٍ أصبحتَ زين الأقاربِ وديناركَ البرَّاقُ زين المواهبِ

رأته عيون الحاسدينَ فَخِلْنَهُ مِنَ الحُسنِ في كفي إحدى الكواكبِ

ليهنكَ منه أنَّكَ الرجل الذي نجوتُ به من أُمّهاتِ عقاربِ(3)

ويبدو أنّ النعل كان شيئاً مهمًّا لدى الناس في ذلك الوقت، فقد كانوا يتهادونه فيما بينهم، فضلاً عن أنه هدية تُوجب الشكر والمدح، لاسيما إذا كان مُهدًى إلى الشاعر، ومصداق ذلك؛ النعل الذي أهداه أحدهم إلى الصنوبري، وجعله ينظم أربعة أبيات في شُكر

(1) ديوان ابن الخياط/194.
(2) شرح ديوان المتنبي 3/394- 397، الإسعاد: الإعانة، الخريدة: الجارية الحيية، والمكسال من النساء: الفاترة: القليلة التصرّف، الشُكل: جمع شكال/ وهو الحبل تُشَدُّ به قوائم الدّابة.
(3) شعر النّامي/88.

المُهدِي، عادًّا إيّاه خير الهدايا التي يمكن أنْ يجود بها الإنسان، إلّا أنّ الشاعر بدا ناقماً على نفسه في البيت الأخير من مقطوعته؛ لأنّه شبّه الجزء الملاصق للأرض من النعل بوجه الشاعر، قائلاً:

بخيرِ الهدايا جُدْتَ ياخيرَ مُنْتَمٍ — إلى خيرِ بادٍ أو إلى خيرِ حاضِرِ

بمحذوَّةٍ حَذْوَ اللِّسانِ شَبيهةٍ — أوائِلُها من حُسْنِها بالأواخِرِ

مُخالَفَةِ الوجهين قام خلافُها — مقامَ اتفاقٍ عند أهلِ البصائرِ

فأمّا الذي من فوقها وَجْهُ عاشِقٍ — وأمّا الذي من تحتها وَجْهُ شاعِرِ[1]

فضلاً عن أنّ التخلّي عن إهداء النعل للشاعر بعد وعده بتلك الهدية، أمرٌ يُوجِبُ الهجاء، وهذا ما يمثّله دعبل بن علي الخزاعي، إذ أنذر مَن وعده بإهدائه نعلاً، بأنّه سيهجوه إذا لم ينفذ وعده له، وجاء إنذاره في بيتين من الشعر، أرى أنه هجاه فيهما فعلاً ولم يكتفِ بإنذاره، فهدّده فيهما بأنه سيُعْجِم حرف العين في كلمة (نعل)، بمعنى أنّه يُثْبِت النقطة فوق حرف العين، فتدلّ بعد الإعجام على فاسد النسب (نغل)، وفي ذلك معنى مؤلم لأيّ إنسان يتعرّض له، قال:

وعَدْتَ النَّعْلَ ثُمَّ صَدَفْتَ عَنها — كأنَكَ تَشْتَهِي شَتْماً وقَذْفا

فإنْ لم تُهْدِ لي نَعْلاً فكُنْها — إذا أعْجَمْتَ بعدَ النُّونِ حَرْفا[2]

وتحدّث بعض الشعراء العباسيين عن هدايا أُخَر وردت لهم من دون أنْ يسألوها، وكانوا دوماً يتكلمون على تلك الهدايا بإسهاب، ويعتنون بوصفها، سواء في قصائدهم، أو في مقطوعاتهم التي ينظمونها في اثناء استلامهم للهدايا، فكشاجم – على سبيل المثال– يصف مشطاً أُهدي إليه، مُبْدِيا فرحته به، ثم يصفه وصفاً دقيقاً من حيث المادة التي صُنِعَ منها، ووزنه المعتدل، واستقامة أسنانه، فضلاً عن الحديث عن لونه، ومن ثمّ يمدح مُهدِيه مدحاً موجزاً لا يتجاوز كونه ظريفاً ولطيفا؛ لإهدائه ذلك المشط له، قال:

يارُبَّ مُهْدٍ هَدِيَّةً لَطُفَتْ — قَدْراً ولكِنْ مَحَلُّها جَلَلُ

إنّ هَدايا الرِّجالِ مُخْبِرةٌ — عن قَدْرِهِمْ قَلَّلُوا أو احْتَفَلُوا

وقد أتانا الذي بَعَثْتَ به — لا أَوَدٌ شابَهُ ولا خَلَلُ

مُشْطٌ مِنَ العُودِ لم تَعِبْهُ ولا — مالَتْ بِهِ خِفَّةٌ ولا ثِقَلُ

يَحْبُو اللِّحَى طِيْبَهُ وزينَتَهُ — فهوَ على مَعْنَيَيْنِ مُشْتَمِلُ

ومُستقيمُ المَسِيرِ عادِلُهُ — ليست لهُ عَثْرَةٌ ولا زَلَلُ

أسودُ لا تَستَبِينُ نُقْبَتُهُ — حينَ يُوارِيهِ فاحِمٌ رَجِلُ

كأنّما الأشْمَطُ الكبيرُ إذا — خالَطَ منهُ البياضُ مُكْتَهِلُ

ظَرُفْتَ فيهِ وكنتَ مُتَّبِعاً — في الظَّرْفِ واللُّطْفِ أيُّها الرّجُلُ

لَكِدْتُ مِن شِدَّةِ السُّرُورِ بِهِ — آمِنُ أنَّ المَشِيبَ يَشْتَعِلُ[3]

---

(1) ديوان الصنوبري/14.
(2) شعر دعبل بن علي الخزاعي/151- 152.
(3) ديوان كشاجم/322- 323.

وأبدع السّريّ الرّفّاء في وصفه قباب شمعٍ أُهدِيت له من لدن أحد أصدقائه، ففي بداية مقطوعته سمّى الهدية (بدعة) وهي تعني الشيء الجديد وغير المسبوق، ثمّ وصفها بأنّ عين الناظر إليها تحتار لجمالها، ثم أعرب عن شعوره، من طريق الحيرة في إبداء تعجّبه منها أم من صاحبها الذي بعثها اليه، وسرعان ما يبدأ بوصف تلك القباب المنيرة وصفاً جميلاً، فهي كالأغصان الذهبية التي تعتليها النيران، ثم يسعى الشاعر إلى تشخيصها وبثّ الحياة فيها، فجعل أرواحها تأكل أجسامها، كناية عن ذوبانها في اثناء الاحتراق، حتى تنتهي أعمارها في سبيل إسعاد غيرها، وبذلك رسم السّريّ الرّفّاء لوحة جميلة لقباب الشمع، وضرب بها مثلاً في التضحية من أجل الآخرين، حين قال فيها:

بَعَثْتَ في المِيلادِ لي بِدْعةً تَحارُ فيها عَينُ رائِيها
هَدِيَّةً لم أَدْرِ مِنْ ظَرْفِها أعجَبُ أم من ظُرْفِ مهديها؟
قِبابَ شَمْعٍ يَتَحامَى الدُّجا مَجْلِسُنا عِندَ تَلالِيها
كأنّها أغصانُ تِبْرٍ بَدَتْ زَهْرَةُ نارٍ في أعالِيها
أرواحُها تأكُلُ أجسامَها عَمْداً وتَفْنَى حِينَ تُفْنِيها
سَيَّافُها يَضْرِبُ أعناقَها وهو بِذاكَ الفِعلِ يُحْيِيها(1)

ومن الأمور النادرة التي لمسناها في بحثنا هذا، هي عدم قبول بعض الشعراء للهدايا التي تُهْدَى لهم، فالشريف الرضي رفض قبول هدية من أحد أصدقائه، وكانت عبارة عن رداء، الأمر الذي دعا المُهْدي إلى عتابه، فما كان من الرضي إلّا الكتابة له ومدحه، وتسويغ رفضه للهدية، في أربعة أبيات من الشعر، أبدى فيها محبته للرجل، مُحاججاً إيّاه بأن الثوب يبلى وتذهب معالمه، ولكن الودّ الذي يكنّه له في صدره سيبقى، ثم يطلب منه عدم فسح الطريق أمام الحاسدين؛ ليفسدوا ما بينهما من المودة، وبذلك سعى الشاعر إلى إرضاء مُهديه بهذه الأبيات:

عَقِيدَ العُلى لا زِلْتَ تَستَبعِدُ العُلى وتُعْتِقُ منها رِقَّ كُلّ أسِيرِ
لَئِنْ خَفَّ من ضَافي ردائِكَ عاتِقي فَوُدُّكَ يَخْطُو في رداءِ قَتيري
سَتَعْلَمُ أنّ الثَّوبَ يَدثُرُ رَسْمُهُ ورَسْمُ الهَوَى في القَلْبِ غيرُ دَثُورِ
فلا تُشْمِتَنَّ الحاسِدِينَ، فسِرُّهم يَشِقّ لِظَنّي مِن وَرَاءِ أُمُورِ(2)

أمّا الشاعر أسامة بن منقذ، فقد قال مقطوعة، وصف فيها مقلمة من جلد أسود، أُهْدِيت إليه، وفيها أقلام مبريّة وسكّين، واصفاً الأقلام التي فيها بالرماح التي تُودي بحياة مَن تطعنه، مع أنها لا تنزف؛ لكونها ليست آدمية، وهي تُفهم الناس مع أنّها لا تتكلم، وعلى النحو هذا يستمر الشاعر في وصف تلك الأقلام التي تخشاها السيوف؛ لأنّها أقوى منها، وفي البيت الأخير من مقطوعته، يخاطب نفسه، آمراً إيّاها بقبول الهديّة؛ لأنّ الشكر لا يحويه إلّا منعم، على حدِّ قوله:

وافَتْكَ حالِكَةُ السَّوادِ، يَخالُها صِبغَ الشَّبابِ الناظرُ المتوَسِّمُ
فيها رِماحُ الخَطِّ مُرْهَفَةُ الشَّبَا تُرْدِي الطَّعِينَ، ولا يُضَرِّجُها دَمُ
من كُلِّ أهيفَ إنْ جَرَى في طِرسِهِ ناجَى، فأَفْهَمَ، وهو لا يَتَكَلَّمُ

---
(1) ديوان السّريّ الرّفّاء 759/2.
(2) ديوان الشريف الرضي 468/1، القتير: الشيب.

بيضُ الأيادي في سوادِ لُعابِهِ فكأنَّما الأرزاقُ منهُ تُقَسَّمُ
تَحوِي مُسَلَّطَةً عليها، يَختَشِي مِن حَدِّها الماضِي الحسامُ المِخذَمُ
تأديبُها لهُمُ بقطعِ رُؤُوسِهم إنْ قَصَّرُوا في السَّعْي عمّا تَرسُمُ
فانعَم بحُسنِ قبولِها مُتَطَوِّلًا فالشّكْرُ لا يَحويهِ إلّا مُنعمُ(1)

وقد تُصبح الهدية مدعاة للهجاء، فيما لو لم تُعجِب الشاعر المُهدَى إليه، وذلك ما حصل مع الشاعر ابن بسّام، حين وعده أحد أصدقائه بأنْ يهديه أقداحاً مخروطة بغاية الحسن، فلمّا أهداها له، لم يقتنع بها، ولم تُعجبه، وردَّها عليه، وكتب معها بيتين من الشعر، هجا فيها تلك الأقداح، واصفاً إيّاها بأنّها قد دعته إلى التنسُّك من بعد إفراطه في المجون؛ بسبب قبح منظرها، مُكَذِّباً مُهديها في وصفه لها بالمخروطة، ورأى الشاعر أنّها ساقطة حرف الطاء من الخرَّاط، والمعنى واضح، فلا حاجة إلى التفصيل فيه، قال:

قد دَعَتْني إلى التَّنَسُّكِ أقدا حُكَ بعدَ المُجونِ والإفراطِ
هي مَخروطةٌ زَعَمْتَ ولكِنْ سَقَطَتْ طاؤُها من الخرَّاطِ(2)

وبهذا الهجاء البذيء للأقداح المُهداة لابن بسّام ينتهي بحثنا في الهدايا التي نالها الشعراء العباسيون، من دون أنْ يستدهوها لأنفسهم، فضلاً عن نفاد كلامنا على المحاور الثلاثة جميعها.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، أفضل المصادر وأكرمها.
- ابن بسام، حياته وشعره، ضمن شعراء عباسيون، د. يونس أحمد السامرائي، ج2، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1407هـ-1987م.
- أبو العتاهية أشعاره وأخباره، عُني بتحقيقها: د. شكري فيصل، طبعة محققة على مخطوطتين ونصوص لم تُنشر من قبل، مطبعة جامعة دمشق، 1384هـ-1965م.
- أبو الفتح البُستي، حياته وشعره، د. محمد مرسي الخولي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1980.
- أبو اليمُن تاجُ الدين زيد بن الحسن الكندي البغدادي، حياته وما تبقى من شعره، تقديم وتحقيق: د. سامي مكي العاني، هلال ناجي، مطبعة المعارف- بغداد، ط1، 1977.
- أحمد بن أبي طاهر طيفور، حياته – شعره- رسائله، دراسة وتحقيق: هلال ناجي، ضمن: أربعة شعراء عباسيون، د. نوري حمودي القيسي، الأستاذ هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1994.
- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح الكتاب، دار صادر، بيروت، 1380هـ- 1960م.
- جنون العظمة في المتنبي- فضيلة خلقية، طاهر أحمد الطناجي، ضمن: أبو الطيب المتنبي حياته وشعره، مكتبة النهضة- بغداد، 1983.
- ديوان ابن الخياط، رواية تلميذه: أبي عبدالله محمد بن نصر بن صغير الخالدي القيسراني، عني بتحقيقه: خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط2، 1414هـ- 1994م.
- ديوان ابن الرومي، تحقيق : د. حسين نصّار، طبعة ثالثة منقحة، ج4، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، 1424هـ- 2003م، شارك في تحقيق هذا الجزء: وفاء محمود الأعصر، أحمد حسين علي صالح، منير محمد المدني.

(1) ديوان أسامة بن منقذ/155، الشبا: جمع شباة، وهي حدّ كلّ شيء.
(2) ابن بسّام، حياته وشعره، ضمن: شعراء عباسيون (السامرائي)، 454/2، مخروطة: خرط العود: قشّره وسوّاه بيده، والصانع خرَّاط.

- ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964.
- ديوان أُسامة بن منقذ، حقّقه وقدّم له: د. أحمد أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، عالم الكتب، د.ت.
- ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، م1، ط2، د.ت، م2، 1963، م3، 1965.
- ديوان الثعالبي، دراسة وتحقيق: د. محمود عبدالله الجادر، طبع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1990.
- ديوان الخالديَّين، جمعه وحقّقه: د. سامي الدهان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1388هـ-1969م.
- ديوان السّريّ الرّفّاء، تحقيق: ودراسة: د. حبيب حسين الحسني، منشورات وزارة الثقافة والاعلام-الجمهورية العراقية، ج1، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، 1981، ج2، دار الطليعة، بيروت، 1981.
- ديوان الشريف الرضي، دار صادر، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1380هـ- 1961م.
- ديوان الصاحب بن عباد، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار القلم، بيروت، مكتبة النهضة – بغداد، ط2، 1394-1974م.
- ديوان الصنوبري (من حرف الراء حتى حرف القاف)، حقّقه: د. إحسان عباس، مطابع غريّب، بيروت، 1970.
- ديوان الصوري، تحقيق: مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شكر، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام- الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، ط1، 1401هـ-1981م.
- ديوان الطغرائي، تحقيق: د. علي جواد الطاهر، د. يحيى الجبوري، الجمهورية العراقية، وزارة الاعلام، دار الحرية للطباعة – بغداد، 1396هـ- 1976م.
- ديوان كشاجم، دراسة وشرح وتحقيق: د. النبوي عبد الواحد شعلان، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط1، 1417هـ- 1997م.
- ديوان مهيار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط1، 1344هـ- 1925م.
- شرح ديوان صريع الغواني، عني بتحقيقه والتعليق عليه: د. سامي الدهان، دار المعارف- القاهرة، ط3، 1985 [تاريخ الايداع].
- شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، 1357هـ- 1938م [تاريخ مقدمة الطبعة الثانية].
- شعر ابن طباطبا العلوي، تحقيق وتقديم: جابر الخاقاني، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975.
- شعر الخبّاز البلدي، جمع وتحقيق: صبيح رديف، مطبعة الجامعة، بغداد، ط1، 1393هـ- 1973م.
- شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة: د. عبد الكريم الأشتر، دمشق، 1964 [تاريخ المقدمة].
- شعر النامي، جمع وتحقيق: صبيح رديف، ساعدت وزارة التربية والتعليم على نشره، مطبعة دار البصري – بغداد، ط1، 1390هـ-1970م.
- المحاسن والأضداد، الجاحظ، انتشارت الشريف الرضي، شريعت، ايران، ط1، 1423هـ.
- المستطرف من كل فنّ مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي، دار الندى، بيروت، 2004م.
- مطيع بن إياس وما تبقى من شعره، ضمن: شعراء عباسيون، دراسات ونصوص شعرية، غوستاف فون غرنباوم، ترجمها وأعاد تحقيقها: د. محمد يوسف نجم، راجعها د. إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت، مطبعة عيتاني، 1959.
- يزيد المهلبي، ضمن شعراء عباسيون، د. يونس أحمد السامرائي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1406هـ-1986م.